



اسم الكتاب: همة الملوك
إعداد الشيخ : فيصل الحاشدي
رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٦٧٥١.
نوع الطباعة: لون واحد.
عدد الصفحات: ١٦٠.
القياس: ١٧×٢٤.

تجهيزات فنية:
مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية
أعمال فنية وتصميم الغلاف أ/ يسري حسن.

٢٠١٧



١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٢٢٢٠٠٢

dar_aleman@hotmail.com

دار الإيمان المتحدة
أمام مستشفى الصوفي - أسفل مدارس اليمن الحديثة
مقابل بنك سبأ - شارع رداع - محافظة ذمار
جوال: ٧٧٥٣٠٩٩٣٥



تأليف

أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

عفا الله عنه






بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

إِنَّ الحَمْدَ لِلَّهِ ، نَحْمدُهُ وَنَسْتَعِيْنُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ فَلا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولِهِ .

أَمَّا بُعْدُ :

مُـقَـدِّمَـةٌ قَـزَّاً كَـأَنَّ رِقَـابَهَـا   رِقَابُ بَنَاتِ المَاءِ تَفْزَعُ لِلرَّعْدِ (١)

كَانَ لِي أَخٌ عَزِيْزٌ فَرْدٌ فِي سِمِوِّ فِعَالِهِ وَأَمَّا هِمَّتُهُ فَهِمَّةُ مُلُوكٍ ، لاَ يَهْدَأُ وَلاَ يَسْتَقِرُّ عَلَىٰ حَالٍ ، فَكُلَّمَا حَازَ مَنْزِلَةً رَغِبَ فِي الَّتِي فَوْقَهَا ، لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَمِلُّ، ثُمَّ إِنَّ تِلْكَ الهِمَّةَ خَبَتْ وَتَوَارَتْ بِالحِجَابِ حَتَّىٰ لَكَأَنَّمَا عَيْنٌ أَصَابَتْهَا ، فَأَرْسَلْتُ لَهُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ فَلَمْ تَنْزِلْ بِوَادٍ غَيْرَ ذِي زَرْعٍ ، بَلْ إِنَّهَا كَالرُّقْيَةِ جَاءَتْ عَلَىٰ لِسَانِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَامَ بَعْدَهَا كَأَنَّمَا نَشِطَ مِنْ عِقَالٍ -وَللهِ الحَمْدُ- فَانْطَلَقَ كَالصَّقْرِ مُتَسَامِيًا عَنْ جَوَاذِبِ الأَرْضِ .

---

(١) « دِيْوَانُ المَعَانِـي » (٣١١) .

قُلْتُ لِلصَّقْرِ وَهُوَ فِي الجَوِّ عَالٍ اِهْبِطِ الأَرْضَ فَالهَوَاءُ جَدِيْبُ
قَالَ لِي الصَّقْرُ: فِي جَنَاحِي وَعَزْمِي وَعَنَانِ السَّمَاءِ مَرْعَىٰ خَصِيْبُ [١]

وَهَا أَنَا أَسُوقُ رِسَالَتِي إِلَىٰ غَيْرِه ، عَسَىٰ أَنْ أَجِدَ أَرْضًا كَأَرْضِه نَقِيَّةً تَقْبَلُ المَاءَ وَتُنْبِتُ الكَلَأَ وَالعُشْبَ ، فَإِنْ لَمْ أَجِدَ فَأَجَادِبَ تُمْسِكُ المَاءَ لِغَيْرِهَا أَوْ تَكُونُ حُجَّةً وَمَعْذِرَةً .

وَسَمَّيْتُهَا « هِمَّةُ المُلُوكِ » ، اسْمٌ « فِي الخَيْرِ لَهُ قَدَمٌ » [٢].

قَالَ الشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللّٰه - :

هِمَّتِي هِمَّةُ المُلُوكِ وَنَفْسِيْ نَفْسُ حُرٍّ تَرَىٰ المَذَلَّةَ كُفْرًا [٣]

وَلَيْسَ الشَّافِعِيُّ « وَاحِدَ أُمِّهِ» [٤] ، بَلْ « صَارَ الأَمْرُ إِلَىٰ الوَزْعَةِ » [٥]، وَضُرِبَتْ بِهَا الأَمْثَالُ .

---

(١) «مَوْسُوعَةُ الشِّعْرِ الإِسْلاَمِيّ» (٢/ ١٥٩)، وَالأَبْيَاتُ لِعَبْدِ الوَهَابِ عَزَّام -رَحِمَهُ اللهُ-.
(٢) «مجْمَعُ الأَمْثَال» (٢/ ٧١) ، وَالمُرَادُ أَنَّ لَهُ سَلَف فِي الخَيْرِ ، وَالمُرَادُ بِهِ هُنَا التَّسْمِيَة بـ «هِمَّةُ المُلُوكِ » .
(٣) « دِيْوَانُ الشَّافِعِيّ » (٤٧) .
(٤) «مجْمَعُ الأَمْثَال» (٢/ ٣٨٢) ، يُضْرَبُ لِلشَّيْءُ النَّادِرِ .
(٥) «مجْمَعُ الأَمْثَال» (٢/ ٣٩٧) ، وَالمَعْنَىٰ أَنَّهُ قَدْ قَالَ بِمِثْلِ قَوْل الشَّافِعِيّ الجَمُّ الغَفِيْرُ ، بَلْ غَدَا مَثَلاً مِنَ الأَمْثَالِ .

قَالَ الكَميتُ يَمْدَحُ مُخَلَّدَ بْنَ يَزِيْدِ بْنِ المُهَلَّبِ :

قَعَدَتْ بِهِمْ هِمَّاتُهُمْ وَسَمَتْ بِهِ   هِمَمُ المُلُوكِ وَسَوْرَةُ الأَبْطَالِ[١]

وَقَالَ السَّرِيُّ الرَّفَّاءُ يَمْدَحُ رَجُلاً :

لِلهِ هِمَّتُكَ الَّتِي رَجَعَتْ بِهَا   هِمَمُ المُلُوكِ الصَّاعِدَاتُ هُمُومًا[٢]

خِتَامًا : دُونَكَ حَدِيْثًا تَعَطَّرَتْ مِنْهُ الرُّبَىٰ وَالمَسَالِكُ «حَدِيْثٌ لَوْ نَقَرْتَهُ لَطَنَّ»[٣] .

قَالَ المُتَنَبِّي :

تَضِيْقُ بِهِ البَيْدَاءُ مِنْ قَبْلِ نَشْرِهِ   وَمَا فُضَّ بِالبَيْدَاءِ مِنْهُ خِتَامُ[٤]

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الظَّاهِرِ :

فَخَدُّهُ الحُسْنُ غَدَا مُوَدِّعًا   أَمَا تَرَىٰ الخَالَ عَلَيْهِ خِتَامْ[٥]

---

(١) « الأَشْبَاهُ وَالنَّظَائِر » (١١) .
(٢) « التَّذْكِرَةُ الفَخْرِيَّة » (١٠٠) .
(٣) «مجْمَعُ الأَمْثَال» (١/ ٢٣٠) .
(٤) « شَرْحُ المُشْكِلِ مِنَ شِعْرِ المُتَنبِّي » (١/ ٧٢) .
(٥) « كَشْفُ الخَال » (١٧) .

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الحَمْدُ للّٰهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ

وَكَتَبَهَا

أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

عفا الله عنه



!

اسْتِهْلالٌ

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ اَلْعَالَمِينَ ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَىٰ أَشْرَفِ اَلْمُرْسَلِينَ ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

أَمَّا بُعْدُ :

اسْتَهَلَّتْ بِالسِلْمِ واليُمْنِ والعِيْـ ـدِ فَكَانَتْ بَـرَاعَـةَ اسْتِهْلَالِ

مِنْ فَيْصَلِ الحَاشِدِيِّ إِلَىٰ أَخِي الكَرِيْمِ/ .... حَفَظَهُ اللهُ وَرَعَاهُ

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ... وَبَعْدُ :

أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لاَ إِلَه إِلَّا هُوَ وَأَسْأَلُهُ لَنَا وَلَكُمْ الثَّبَاتَ فِيمَا نَقُولُ وَنَذَرُ، أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

عَهْدِي بكَ عَالِيَ الهِمَّة كَأَنَّ هِمَّتَكَ جَذْوَةُ نَارٍ فِي لَيْلٍ حَالِكٍ لاَ تَرْضَىٰ مِنَ الأُمُورِ إِلَّا بِأَشْرَافِهَا وَأَعْلاَهَا ، سَبَّاقًا إِلَىٰ مَا سَبَقَ بِهِ أَسْلاَفُكَ مِنَ العِلْمِ والعَمَلِ وَحَالُكَ :

وَلِي هِمَـمٌ بَيْنِي وَبَـيْنَ بُلُوغِهَا   بُحُورٌ مِنَ الآمَالِ لَيْسَ لَهَا جِسْرُ[١]

وَأَنِّي لَمَّا رَأَيْتُ تِلْكَ الهِمَّةَ قَدْ اعْتَرَاهَا بَعْضُ الفُتُورِ عَمَّا كُنَّا نَعْهَدُ أَحْبَبْتُ تَذْكِيْرَكَ لِمَا لَكَ عَلَيْنَا مِنَ الحَقِّ .

فَإِنَّ الهِمَّةَ قَدْ تَقْصُرُ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ بِسَبَبِ عَجْزٍ أَوْ كَسَلٍ أَوْ سَبَبٍ مِنَ الأَسْبَابِ فَتَحْتَاجُ إِلَىٰ مَنْ يُوْقِظُهَا .

قَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ اللّٰهُ- :

« إِنَّمَا تَقْصُرُ الهِمَّةُ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ فَإِذَا حُثَّتْ سَارَتْ، وَمَتَىٰ رَأَيْتَ فِي نَفْسِكَ عَجْزًا فَسَلْ الْمُنْعِمَ، أَوْ كَسَلاً فَسَلْ الْمُوفِّقَ ، فَلَنْ تَنَالَ خَيْرًا إِلَّا بِطَاعَتِهِ، فَمَنْ الَّذِي أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَرَ كُلَّ مُرَادٍ ؟، وَمَنْ الَّذِي أَعْرَضَ عَنْهُ فَمَضَىٰ بِفَائِدَةٍ ، أَوْ حَظِيَ بِغَرَضٍ مِنْ أَغْرَاضِهِ » [٢].



(١) « دِيْوَانُ عَلَـىٰ الجَارِم» (٢٩٥) .
(٢) « لَفْتَةُ الكَبِد فِي نَصِيْحَةِ الوَلَد » (٤٥) .

البَابُ الأَوَّلُ

* مَا هِيَ الهِمَّةُ ؟ .
* أَقْسَامُ الهِمَّةِ .
* الهِمَّةُ مَحَلُّهَا القَلْبُ .
* الهِمَّةُ لاَ تَهْرَمُ .
* نُدْرَةُ كَبِيْرِ الهِمَّةِ .
* تَفَاوُتُ الهِمَمِ .
* المَرْءُ حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ .
* الهِمَّةُ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ .
* عُلُوُّ هِمَّةِ الرَّسُولِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– .
* هِمَّةُ المُلُوكِ حَتَّىٰ فِي أَحْلَكِ الظُّرُوفِ .
* عَالِي الهِمَّةَ لاَ يَضُرُّهُ التَّفَرُّدُ .
* حَاجَةُ طَالِبِ العِلْمِ لِعُلُوِّ الهِمَّةِ .
* أَعْلَىٰ الهِمَمِ فِي طَلَبِ عِلْمِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ .
* لِتَكُنْ هِمَّتُكَ الآخِرَةَ .
* لاَ تَقِفْ بِكَ هِمَّتُكَ دُونَ اللهِ .

مَا هِيَ الهِمَّةُ ؟ ...

هَــذِهِ الهِــمَّــةُ بِــالأَمْــسِ جَــرَتْ   فَحَوَتْ فِي طَلَبِ الحَقِّ الأَمَد [١]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم : عَرَّفَ الجَاحِظُ عُلُوَّ الهِمَّةِ :

« اسْتِصْغَارِ مَا دُونَ النِّهَايَةِ مِن مَعَالِي الأُمُورِ » [٢] .

كَمَا عَرَّفَ دُنُوَّ الهِمَّةِ :

« ضَعْفِ النَّفْسِ عَنْ طَلَبِ المَرَاتِبِ العَالِيَةِ » [٣] .

وَعَرَّفَ الجِرْجَانِيُّ الهَمَّ الَّذِي هُوَ مُقَدَّمَةِ الهِمَّةِ ، فَقَالَ : « الهَمُّ : هُوَ عَقْدُ القَلْبِ عَلَىٰ فِعْلِ شَيْءٍ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَ ، مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ » [٤] .

وَعَرَّفَ الهِمَّةَ بِأَنَّهَا : « تَوَجُّهُ القَلْبِ وَقَصْدُهُ بِجَمِيْعِ قُوَاهُ ا لرَّوْحِيَّةِ إِلَىٰ جَانِبِ الحَقِّ لِحُصُولِ الكَمَالِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ » [٥].

---

(١) «دِيْوَانُ شَوْقِي» (١/ ٦٠٢) .
(٢) « تَهْذِيْبُ الأَخْلَاق» لِلجَاحِظ (٢٨) .
(٣) « المَرْجِعُ السَّابِقُ » (٣٤) .
(٤) «التَّعْرِيْفَاتُ» (٣٢٠) .
(٥) « المَرْجِعُ السَّابِقُ » (٣٢٠) .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللّه- :

«الهِمَّةُ» فِعْلَةُ مِنَ الهَمِّ ، وَهُوَ مَبْدَأُ الإِرَادَةِ ، وَلَكِنْ خُصُّوهَا بِنِهَايَةِ الإِرَادَةِ، فَالهَمُّ مَبْدَؤُهَا ، وَ الهِمَّةُ نِهَايَتُهَا »[١].

وَأَنْتَ – أَيُّهَا الأَخُ الكَرِيْمُ – إِذَا عَقَدَ قَلْبُكَ عَلَىٰ فِعْلِ شَيْءٍ مِنَ الخَيْرِ فَذَلِكَ هُوَ الهَمُّ ، وَالهَمُّ يَحْتَاجُ إِلَىٰ هِمَّةٍ ، « وَإِذَا طَلَعَ نَجْمُ الهِمَّةُ فِي لَيْلِ البَطَالَةِ، وَرَدِفَهُ قَمَرُ العَزِيْمَةِ ، أَشْرَقَتْ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا »[٢] .



(١) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْـنَ » (٣/ ٥) .
(٢) « الفَوَائِدُ » لابْنِ القَيِّمِ (٧٩) .

أَقْسَامُ الهِمَّة

هَـلْ أَذْكُـرُ الهِـمَّـةَ وَهِـيَ الَّتِي تُبْلِغُهُ فِي المَجْدِ أَقْصى مَـرَامْ [١]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

عُلُوُّ الهِمَّةِ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ :

الأَوَّلُ : رَجُلٌ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ فِيْهِ الكِفَايَةَ لِعَظَائِمِ الأُمُورِ، وَيَجْعَلُ هَذِهِ العَظَائِمَ هِمَّتَهُ، وَهَذَا مَا يُسَمَّىٰ (عَظِيْمَ الهِمَّةِ) أَوْ (عَظِيْمَ اليَقِيْنِ) .

الثَّانِي : رَجُلٌ فِيْهِ الكِفَايَةُ لِعَظَائِمِ الأُمُورِ ، وَلَكِنَّهُ يَحْتَقِرُ نَفْسَهُ فَيَضَعُ هَمَّهُ فِي سَفَاسِفِ الأُمُورِ وَصَغَائِرِهَا ، وَهَذَا مَا يُسَمَّىٰ بِصَغِيْرِ الهِمَّةِ ؛ قَالَ المُتَنَبِّي:

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا كَنَقْصِ القَادِرِيْنَ عَلَىٰ التَّمَامِ [٢]



(١) «دِيْوَانُ خَلِيْل جُبْرَان» (٢٢٢٢) .
(٢) «دِيْوَانُ المُتَنَبِّي» (١/ ١٢٧) .

الهِمَّةُ مَحلُّهَا القَلْبُ

تَجَـمَّـعَـتْ فِي فُـــؤَادِهِ هِمَـمٌ   مِلءُ فُـؤَادِ الزَّمَانِ إِحْدَاهُمَا [١]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

غَيْرُ خَافٍ عَلَيْكَ أَنَّ الهِمَّةَ مَحلُّهَا القَلْبُ ، وَالقَلْبُ لاَ سُلْطَانَ عَلَيْهِ لِغَيْرِ صَاحِبِهِ، وَكَمَا أَنَّ الطَّائِرَ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ كَذَلِكَ يَطِيْرُ المَرْءُ بِهِمَّتِهِ فَتُحَلِّقُ بِهِ إِلَىٰ أَعْلَىٰ الآفَاقِ طَلِيْقَةً مِنَ القُيُودِ الَّتِي تُكَبِّلُ الأَجْسَادَ [٢] .

وَهَلْ يَقْطَعُ العَبْدُ مَنَازِلَ السَّيْرِ إِلَىٰ اللهِ إِلَّا بِقَلْبِهِ .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللّهُ- :

« اعْلَمْ أَنَّ العَبْدَ إِنَّمَا يَقْطَعُ مَنَازِلَ السَّيْرِ إِلَىٰ اللهِ إِلَّا بِقَلْبِهِ وَهِمَّتِهِ لاَ بِبَدَنِهِ، وَالتَّقْوَىٰ فِي الحَقِيْقَةِ تَقْوَىٰ القُلُوبِ، لاَ تَقْوَىٰ الجَوَارِحِ » .

قَالَ اللهُ – سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ – : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحَجُّ :٣٢] .

---

(١) «دِيْوَانُ المُتَنبِّي» (١/ ١٢٧) .

(٢) «انْظُرْ: عُلُوّ الهِمَّة» لِلمُقَدَّم (١٦)

وَقَالَ اللهُ – سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ –: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحَجُّ :٣٧].

وَقَالَ النَّبِيُّ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– : « **التَّقْوَىٰ هَا هُنَا** » [١] ، وَأَشَارَ إِلَىٰ صَدْرِهِ » .

فَالكَيِّسُ يَقْطَعُ مِنَ المَسَافَةِ بِصِحَّةِ العَزِيْمَةِ ، وَعُلُوِّ الهِمَّةِ ، وَتَجْرِيْدِ القَصْدِ، وَصِحَّةِ النِّيَّةِ ، مَعَ العَمَلِ القَلِيْلِ ، أَضْعَافَ أَضْعَافَ مَا يَقْطَعُهُ الفَارِغُ مِنْ ذَلِكَ مَعَ التَّعَبِ الكَثِيْرِ ، وَالسَّفَرِ الشَّاقِّ فَإِنَّ العَزِيْمَةَ وَالمَحَبَّةَ تُذْهِبُ المَشَقَّةَ وَتُطَيِّبُ السَّيْرَ وَالتَّقَدُّمُ وَالسَّبْقُ إِلَىٰ اللهِ – سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ – إِنَّمَا هُوَ بِالهِمَمِ، وَصِدْقِ الرَّغْبَةِ وَالعَزِيْمَةِ ، فَيَقْدُمُ صَاحِبُ الهِمَّةِ مَعَ سُكُونِهِ صَاحِبَ العَمَلِ الكَثِيْرِ بِمَرَاحِلَ فَإِنْ سَاوَاهُ فِي هِمَّتِهِ تَقَدَّمَ عَلَيْهِ بِعَمَلِهِ ، وَهَذَا مَوْضِعٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَفْصِيْلٍ يُوَافِقُ فِيْهِ الإِسْلَامَ وَالإِحْسَانَ » [٢].

قَالَ الشَّرِيْفُ الرَّضِيُّ :

رُمْتُ المَعَالِيَ فَامْتَنَعْنَ وَلَمْ يَزَلْ ... أَبَدًا يُمَانِعُ عَاشِقًا مَعْشُوقُ

وَصَبَرْتُ حَتَّىٰ نُلْتُهُنَّ وَلَمْ أَقُلْ ... ضَجِرًا دَوَاءُ الفَارِكِ [٣] التَّطْلِيْقُ [٤]

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٦٤) ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–.
(٢) «الفَوَائِدُ» (١٤٢) .
(٣) الفِرْكُ : هُوَ بُغْضُ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ الآخَرَ .
(٤) « دِيْوَانُ الشَّرِيْفِ الرَّضِيِّ (١١٠٨) .

وَقَالَ غَيْرُهُ:

قَلْبِي نَظِيْرُ الجَبَلِ الصَّعْبِ ... وَهِمَّتِي أَكْبَرُ مِنْ قَلْبِي
فَاسْتَخِرِ اللهَ وَخُذْ مُرْهَفًا ... وَافْتِكْ بِأَهْلِ الشَّرْقِ وَالغَرْبِ
وَلاَ تَمُتْ إِنْ حَضَرتْ مِيْتَةٌ ... حَتَّىٰ تُمِيْتَ السَّيْفَ بِالضَّرْبِ [(١)]



(١) «دِيْوَانُ المَعَانِي» (١/ ١٠٩).

الهِمَّةُ لاَ تَهْرَمُ

وَلِكُلِّ جِسْمٍ فِي النُّحُولِ بَلِيَّةٌ ... وَبَلَاءُ جِسْمِي مِنْ تَفَاوتِ هِمَّتِي [(١)]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

مَهْمَا ضَعُفَ الجَسَدُ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ، فَإِنَّ الهِمَّةَ لاَ يَزِيْدُهَا تَقَدُّمُ العُمُرِ إِلَّا تَوَهُّجًا .

قَالَ ابْنُ عُقِيْلٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ- :

« إِنِّي لأَجِدُ مِنْ حِرْصِي عَلَىٰ العِلْمِ وَأَنَا فِي عَشْرِ الثَّمَانِيْنَ أَشَدَّ مِمَّا كُنْتُ أَجِدُهُ وَأَنَا ابْنُ عِشْرِيْنَ » [(٢)].

وَقَالَ أَبُو الحَسَنِ التُّهَامِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- :

مَاشَابَ شِعْرِي وَلَا حَزْمِي وَلَا خُلُقِي ... وَلَا وَلائِي وَلَا دِيْنِي وَلَا كَرَمِي
وَإِنَّمَا اعْتَاضَ شَعْرِي غَيْرَ صَبْغَتِهِ ... وَالشَّيْبُ فِي الشَّعْرِ غَيْرُ الشَّيْبِ فِي الهِمَمِ [(٣)]

---

(١) «دِيْوَانُ لهيَار الدَّيْلَمِي » (٢٧٦) .
(٢) « المُنْتَظِمُ » لابْنِ الجَوْزِيِّ (٩/ ٢١٤) .
(٣) « الكَشْكُول » (١/ ١٥٥) .

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْم بْن مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللّٰهُ-:

رُوَيْـدَكَ لاَ يَغُرُّكَ شَيْبُ شَعْرِي   وَلاَ تَعْجَلْ بِحُكْمِكَ يَالَبِيْبُ
فَعِنْدِي هِمَّــةٌ تَمْحُو الــرَّوَاسِي   وَمَهْمَا شَــابَ رَأْسِي لاَ تَشِيْبُ

وَهَذَا شَيْخُ الإِسْلَام زَكَرِيَّا الأَنْصَارِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- كَانَ يُصَلِّي النَّوَافِلِ مِنْ قِيَام مَعَ كِبَرِ سِنِّهِ وَبُلُوغِهِ مَائَةَ سَنَةٍ أَوْ أَكْثَرَ وَهُوَ يَمِيْلُ يَمِيْنًا وَشِمَالاً وَلاَ يَتَمَالَكُ أَنْ يَقِفَ بِغَيْرِ مَيْلٍ لِلْكِبَرِ وَالمَرَضِ ، فَقِيْلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ: يَا وَلَدِي، النَّفْسُ مِنْ شَأْنِهَا الكَسَلُ ، وَأَخَافُ أَنْ تَغْلِبَنِي وَأَخْتِمُ عُمُرِي بِذَلِكَ» [١].

دَعَاهُ دَاعِيْهِ بِالشَّيْخِ الجَلِيْلِ وَمَا   وَاللهِ أَدْرَكُــهُ فِي الهِمَّةِ الكِبْرُ [٢]

وَقِيْلَ لِابْنِ بَازٍ -رَحِمَهُ اللهُ- بَعْدَ أَنْ تَجَاوَزَ التِّسْعِيْنَ وَهِمَّتُهُ هِمَّةٌ تُزْرِي بِهِمَم الجَمِّ الغَفِيْرِ مِنَ الشَّبَاب ، فَقِيْلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : إِذَا كَانَ الرُّوْحُ يَعْمَلُ فَالجَسَدُ لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَمِلُّ » .

أَخُــو شَيْبَةٍ طِفْلُ المُــرَادِ وَهَمَّــةٍ   لَهَا هِمَّةٌ فِي العَيْشِ عَذْرَاءُ نَاهِدُ [٣]

(١) « الكَوَاكِبُ السَّائِرَةُ بِأَعْيَانِ المَائَةِ العَاشِـرَةِ » نِجْمُ الدِّيْن الغَزِّيُّ (١/ ٢٠٢).
(٢) «دِيْوَانُ الشِّعْرِ العَرَبِـيِّ » (٤٥/ ٢٧٢) .
(٣) «دِيْوَانُ أَبِي العَلَاءِ المَعَرِّيِّ » (١/ ٢٦١) .

نُدْرَةُ كَبِيْرِ الهِمَّةِ

يُعَدُّ بِأَلْفٍ مِـنْ رَجَـالِ زَمَانِهِ   وَلَكِنَّهُ فِي الأَلْمَعِيَّةِ وَاحِـدُ [١]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

قَدْ يَنْدُرُ كَبِيْرُ الهِمَّةِ فِي النَّاسِ حَتَّىٰ لاَ يَكَادُ يُوْجَدُ .

فَفِي «صَحِيْح مُسْلِم» مِنْ حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِلِ مَائةٍ ، لاَ يَجِدُ الرَّجُلُ فِيْهَا رِحْلَةً** » [٢] .

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- :

وَمَعْنَىٰ الحَدِيْثِ : أَنَّ المَرْضِيَّ الأَحْوَالِ مِنَ النَّاس ، الكَامِلَ الأَوْصَافِ، الحَسَنَ المَنْظَرِ ، القَوِيَّ عَلَىٰ الأَحْمَالِ وَالأَسْفَارِ ، قَلِيْلٌ جِدًّا ، كَقِلَّةِ الرِحْلَةِ فِي الإِبَلِ [٣] .

---

(١) «مِنْ رَحِيْقِ الشِّعْرِ » (٢٤١) .
(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٤٧) .
(٣) شَـرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَـىٰ مُسْلِمٍ (١٦/ ١٠١) .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- : « صَوْتُ القَعْقَاعِ [١] - أَيْ ابْنِ عُمْرٍ والتَّمِيْمِيِّ - فِي الجَيْشِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ » .

وَلَمَّا طَلَبَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- المَدَدَ مِنْ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فِي فَتْحِ مِصْرَ كَتَبَ إِلَيْهِ : « أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنِّي أَمْدَدْتُكَ بِأَرْبَعَةِ آلافِ رَجُلٍ ، عَلَىٰ كُلِّ أَلْفٍ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَقَامُ الأَلْفِ : الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ، وَالمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍ، وَعِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ، وَمَسْلَمَةُ بْنُ خَالِدٍ » .

وَلِلّٰهِ دَرُّ القَائِلِ :

وَلَمْ أَرَ أَمْثَالَ الرِّجَالِ تَفَاوُتًا ... إِلَىٰ المَجْدِ حَتَّىٰ عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدٍ [٢]

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ بْنُ مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللّٰهُ- :

أَرَىٰ الهِمَّةَ العَلْيَاءَ عَزَّتْ وَأَهْلُهَا ... كَمَا عَزَّ فِي البَيْدَاءِ وِرْدُ أَقَاحِ



(١) القَعْقَاعُ صَحَابِيٌّ جَلِيْلٌ وَبَطَلٌ مِنْ أَبْطَالِ العَرَبِ فِي ا الجَاهِلِيَّةِ وَالإِسْلَام ، خَاضَ وَقَائِعَ الفُرْسِ وَشَهِدَ اليَرْمُوكَ وَكَانَ يَوْمَ الزِّيْنَةِ يَتَقَلَّدُ سَيْفُ هِرَقْلَ مَلِكَ الرُّوْمِ وَدِرْعَ بُهْرَام مَلِكِ الفُرْسِ وَهُمَا مِمَّا أَصَابَهُ مِنَ الغَنَائِمِ ، وَكَانَ شَاعِرًا فَحْلاً .

(٢) «التَّمْثِيْلُ وَالمُحَاضَرَةُ» (١/ ٤٣٥) .

تَفَاوُتُ الهمم

مَا النَّاسُ إِلَّا كَنَفْسٍ فِي تَقَارُبِهِمْ لَوْلاَ تَفَاوتُ أَرْزَاقٍ وَأَقْسَامٍ [١]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

الهِمَمُ تتَفَاوَتُ كَمَا يَتَفَاوَتُ الرِّجَالُ، فَأَلْفٌ مِنْهُمْ بِوَاحِدٍ ، كَانَ الأَعْرَابِيُّ يَأْتِي إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَسْأَلُهُ حَفْنَةَ مِنْ شَعِيْرٍ قَائِلاً: «مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ ؛ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»[٢].

هَذِهِ هِمَّتُهُ ، بَيْنَمَا هِمَّةُ رَبِيْعَةَ بْنِ كَعْبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- هِمَّةٌ فَوْقَ الشَّمْسِ... قَالَ رَبِيْعَةُ بْنِ كَعْبِ الأَسْلَمِيُّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كَنْتُ أَبِيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَتَيْتُهُ بِوُضُوْئِهِ وَحَاجَتِهِ ، فَقَالَ لِي : « **سَلْ** ، فَقُلْتُ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الجَنَّةِ ، قَالَ : **أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ** ، قُلْتُ : هُوَ ذَاكَ ، قَالَ : **فَأَعِنِّي عَلَىٰ نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ** »[٣] .

فَتَأَمَّلْ - أَخِي الكَرِيْم - أَيْنَ كَانَتْ تُحَلِّقُ هِمَّةُ رَبِيْعَةَ بْنِ كَعْبٍ -رَضِيَ

(١) «دَوَاوِيْنُ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ » (٥/ ٣٧٩) .
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٥٨٠٩) ، ومُسْلِمٌ (١٠٥٧) .
(٣) رَوَاهُ مُسْلِم (٤٨٩) .

اللهُ عَنْهُ- كَانَتْ تُحَلِّقُ فِي سَمَاءٍ رَفِيْعَةٍ ، وَقِمَمٍ شَاهِقَةٍ ، وَكَمَا قَالَ العَلَّامَةُ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- : « فَلِلَّهِ دُرُّ الهِمَمِ ! مَا أَعْجَبَ شَأْنَهَا، وَأَشَدَّ تَفَاوُتَهَا ، فَهِمَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْعَرْشِ ، وَهِمَّةٌ هَائِمَةٌ حَوْلَ الأَنْتَانِ وَالْحُشِّ » (١) .

وَلِكُلِّ جِسْمٍ فِي النُّحُولِ بَلِيَّةٌ وَبَلَاءُ جِسْمِي مِنْ تَفَاوُتِ هِمَّتِي

وَقَالَ أَبُو دَلَف :

وَلَيْسَ فَرَاغُ القَلْبِ مَجْدًا وَرِفْعَةً وَلَكِنْ شُغَلَ القَلْبِ لِلْهَمِّ دَافِعُ

وَذُو المَجْدِ مَحْمُولٌ عَلَىٰ كُلِّ آلَةٍ وَكُلُّ قَصِيْرِ الهَمِّ فِي الحَيِّ وَادِعُ(٢)

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ بْنُ مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللّهُ- :

مَا لِي أَرَىٰ هِمَمَ الرِّجَالُ تَبَايَنَتْ كَتَبَايُنِ الأَشْكَالِ وَالأَلْوَانِ

فَالجُمُّ هِمَّتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا الفَنَا سَعْيًا وَرَاءِ المَالِ وَالنِّسْوَانِ

وَالبَعْض لَكِنْ نَادِرٌ هِمَّاتُهُم قُصِرَتْ عَلَىٰ الفِرْدَوْسِ وَالرِّضْوَانِ

وَالنَّاسُ فِي الهِمَمِ مَذَاهِبُ شَتَّىٰ وَطَرَائِقُ مَدَدًا ، قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [اللَّيْلُ : ٤] .

---

(١) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ » (٣/ ١٤٨) .
(٢) « مُحَاضَرَةُ الأُدَبَاءِ » (١/ ٥٢٤) .

«يَجْتَمِعُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ وَعُرْوَةُ بْنَ الزُّبَيْرِ وَمُصْعَبُ وَعَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ بِفِنَاءِ الكَعْبَةِ ، فَقَالَ لَهُمْ مُصْعَبُ : «تَمَنَّوا» ، فَقَالُوا : « ابْدَأْ أَنْتَ » .

فَقَالَ : « وِلَايَةَ العِرَاقِ ، وَتَزَوُّجَ سَكِيْنَةَ ابْنَةَ الحُسَيْنِ ، وَعَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ » ، فَنَالَ ذَلِكَ ، وَأَصْدَقَ كُلَّ وَاحِدَةٍ خُمْسُمَائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَجَهَّزَهَا بِمِثْلِهَا .

وَتَمَنَّىٰ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ الفِقْهِ ، وَأَنْ يُحْمَلَ عَنْهُ الحَدِيْثُ ، فَنَالَ ذَلِكَ ، وَتَمَنَّىٰ عَبْدُ المَلِكِ الخِلَافَةَ ، فَنَالَهَا ، وَتَمَنَّىٰ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ الجَنَّةَ » [١] .

أَعَجَزْتُمْ مِثْلَ الَّـذِي هَمُّـوا بِهِ بُعْدًا لِمَنْ هُوَ دُوْنَهُـم فِي الهِمَّةِ [٢]

وَتَتَوْقُ نَفْسُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ خَالِهِ عَبْدُ اللهِ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- فَيَقُولُ : إِنَّ لِي نَفْسًا تَوَّاقَةً ، لَمْ تَزَلْ تَتُوقُ إِلَىٰ الإِمَارَةِ فَلَمَّا نِلْتَهَا تَاقَتْ إِلَىٰ الخِلَافَةِ ، فَلَمَّا نِلْتُهَا تَاقَتْ إِلَىٰ الجَنَّةِ » [٣] .

لَـهُ هِمَّـةٌ تَـوَّاقَـةٌ شَـادَوِيَّـةٌ إِذَا صَعِدَتْ تَاقَتْ لِأَشْرَفِ مَصْعَدًا
إِذَا بَلَغَتْ فِي المُلْكِ دَارَ نَعِيْمِهِ أَبَىٰ عَزْمُهُ إِلَّا النَّعِيْمَ مُخَلَّدًا [٤]

---

(١) « وَفِيَّاتُ الأَعْيَان» لابْنِ خِلْكَان (٢/ ٣٠١) .
(٢) « المُدْهِشُ » لابْنِ الجَوزِيِّ (٢٢٨) .
(٣) « دَوَاوِيْنُ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ عَلَىٰ مَرِّ العُصُورِ » (٢٧/ ١٨٨) .
(٤) « دِيْوَانُ ابْنِ نَبَاتَه » (٥٨٥) .

المَرْءُ حَيْثُ يجْعَلُ نفْسَهُ

وَمَا المَرْءُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ   فَكُنْ طَالِبًا فِي المَجْدِ أَعْلَىٰ المَرَاتِبِ [١]

قَالَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- : « المَرْءُ حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسُهُ : إِنْ رَفَعَهَا ارْتَفَعَتْ ، وَإِنْ وَضَعَهَا اتَّضَعَتْ » [٢].

وَهِيَ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ ظَلَّتْ تُرَاوِدُنِي أَثْنَاءَ قِرَاءَتِي لِتَرَاجِمِ الرِّجَالِ ، وَأَنَا أَذْكُرُ لَكَ مِثَالاً وَاحِدًا مِنْ تَارِيخِنَا العَظِيم ، إِنَّهَا قِصَّةُ كَافُورَ وَصَاحِبِهِ .

كَانَ كَافُورُ الإِخْشِيدِيُّ وَصَاحِبُهُ عَبْدَيْنِ أَسْوَدَيْنِ ، فَجِيْءَ بِهِمَا إِلَىٰ قَطَائِعِ ابْنِ طُولُونَ حَاضِرَةِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ وَقْتَئِذٍ لِيُبَاعَا فِي أَسْوَاقِهَا ، فَتَمَنَّىٰ صَاحِبُهُ أَنْ يُبَاعَ لِطَبَّاخٍ حَتَّىٰ يَمْلأَ بَطْنَهُ بِمَا يَشَاءُ ، وَتَمَنَّىٰ كَافُورُ أَنْ يَمْلِكَ هَذِهِ الدِّيَارَ لِيَحْكُمَ وَيَنْهَىٰ وَيَأْمُرُ ، وَقَدْ بَلَغَ كُلٌّ مُنَاهُ ، فَبِيعَ صَاحِبُ كَافُورُ لِأَحَدِ القُوَّادِ المِصْرِيِّينَ ، فَأَظْهَرَ كَفَاءَةً وَاقْتِدَارًا، وَلَمَّا مَاتَ مَوْلاَهُ ، قَامَ مَقَامَهُ وَاشْتُهِرَ بِذَكَائِهِ، وَكَمَالِ فِطْنَتِهِ عِنْدَ الوُلاَةِ ، وَمَا زَالَ يَجِدُّ وَيَجْتَهِدُ حَتَّىٰ مَلَكَ مِصْرَ، وَالشَّامَ ، وَالحَرَمَيْنِ ، ثُمَّ مَرَّ يَوْمًا بِصَاحِبِهِ ، فَرَآهُ عِنْدَ طَبَّاخٍ بِحَالَةٍ سَيِّئَةٍ ،

---

(١)« دَوَاوِينُ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ » (١١/ ١٦٧) .

(٢) « مَوْسُوعَةُ البُحُوثِ سُكَّانِ الهِمَم » (٤) .

فَقَالَ لِمَنْ مَعَهُ : « لَقَدْ قَعَدَتْ بِهَذَا هِمَّتُهُ، فَكَانَ كَمَا تَرَوْنَ، وَطَارَتْ بِي هِمَّتِي، فَكُنْتُ كَمَا تَرَوْنَ ، وَلَوْ جَمَعَتْنِي وَإِيَّاهُ هِمَّةٌ وَاحِدَةٌ لَجَمَعَنَا عَمَلٌ وَاحِدٌ » [١].

قَالَ عَلِيٌّ العَلَوِيُّ :

هِمَمُ الرِّجَالِ تَبِيْنُ مِنْ أَفْعَالِهِمْ   والفِعْلُ عَدْلٌ شَاهِدٌ لِلغَائِبِ [٢]

وَقَالَ شَوْقِي :

هِمَمُ الرِّجَالِ إِذَا مَضَتْ لَمْ يُثْنِهَا   خِدَعُ الثَّنَاءِ وَلاَ عَوَادِي الذَّامِ [٣]

وَقَالَ :

وَمَـا نَيْلُ المَطَـالِـبِ بِالتَّمَنِّي   وَلَـكِـنْ تُـؤْخَـذُ الدُّنْيَا غِلابًا
وَمَـا اسْتَعْصَىٰ عَـلَىٰ قَـوْمٍ مَنَالٌ   إِذَا الإِقْـدَامُ كَانَ لَهُمْ رِكَابًا [٤]

وَقَالَ الشَّاعِرُ يَمْدَحُ رَجُلاً وَيُشَبِّهُهُ بِكَافُوْرَ الإِخْشِيْدِيِّ المُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ:

أَنْتَ مِثْلُ الإِخْشِيْدِ فَانْهَضْ بِمَا مُلْـ   ـكْتَ بِالجِدِّ مِنْكَ والاعْتِزَامِ [٥]

(١) « المُفْرَدُ العِلْم » أَحْمَد الهَاشِمِي (٧٧-٧٨) .
(٢) « تَتِمَّةُ اليَتِيْمَةِ » (٤/ ٤٧١) .
(٣) « دَوَاوِيْنُ الشِّعْرِ » (٩١/ ٢٤١) .
(٤) « مَوْسُوعَةُ الشِّعْرِ » (٢٥/ ١١٨٨) .
(٥) « نِهَايَةُ الأَرَبِ » (٥/ ١٨٩) .

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْم بْن مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللّهُ-:

المَـــرْءُ حَـيْـثُ تَـكُـونُ هِمَّـتُـهُ   تَحْـتَ الـثَّـرَىٰ أَوْ قِمَّةُ المَجْدِ

فَاصْنَعْ لِنَفْسِكَ أَنْتَ مَوْضِعَهَا   وَابْـــذِلْ لِـذَلِـكَ غَـايَـةَ الجَهْدِ



الهِمَّةُ في الكِتَاب والسُّنَّة

يَـا وَاسِـعَ الهِـمَّـةِ لاَ عَـدِمْـتَ تِـلْـكَ الهِـمَّـةِ [١]

أَوَّلًا : **الهِمَّةُ في القُرْآنِ الكَرِيْمِ** :

أَيْ أَخِي الكَرِيْمَ :

القُرْآنُ الكَرِيْم حَافِلٌ بِذِكْرِ عُلُوِّ الهِمَّةِ في صُوَرٍ شَتَّىٰ ، فِمِنْهَا ثَنَاءُ اللهِ - سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ - عَلَىٰ أَصْحَابِ الهِمَمِ العَالِيَةِ وَفي طَلِيْعَتِهِمْ الأَنْبِيَاءُ والمُرْسَلُونَ -عَلَيْهِمْ السَّلَام- ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ خَاتِمُهُمْ مُحَمَّدٌ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأَحْقَاف:٣٥].

وَعَبَّرَ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَى- عَنْ أَوْلِيَائِهِ الَّذِيْنَ كَبُرَتْ هِمَّتُهُمْ بِوَصْفِ الرِّجَالِ فِي مَوَاطِنِ البَأْسِ والجَلَدِ وَالعَزِيْمَةِ والثَّبَاتِ عَلَىٰ الطَّاعَةِ والقُوَّةِ فِي دِيْنِ اللهِ .

(١) « دِيْوَانُ بَهَاء الدِّيْن » (١/ ٤٩٠) .

قَالَ اللهُ – سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ – : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النُّورُ :٣٦–٣٧] .

وَذَمَّ اللهُ – سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ – سَاقِطِيْ الهِمَّةِ وَتَنَوَّعَتْ أَسَالِيْبُ القُرْآنِ فِي ذَلِكَ .

قَالَ اللهُ – سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ –: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الأَعْرَافُ :١٧٥–١٧٧].

وَعَابَ اللهُ – سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ – هِمَمَ المُنَافِقِيْنَ وَرِضَاهُمْ بِالدُّوْنِ مِنْ مَعَالِي الأُمُورِ وَأَشْرَافِهَا ، فَقَالَ – سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ – :﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾[التَّوْبَةُ :٨٧] .

وَقَالَ اللهُ – سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ –: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ

ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [التَّوْبَةُ:٤٦] .

إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ ، بَلْ مَا مِنْ آيَةٍ تَمْدَحُ الَّذِيْنَ آمَنُوا إِلَّا كَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ عُلُوِّ الهِمَّةِ أَوْصَلَتْهُمْ إِلَىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ العُلُوِّ وَالرِّفْعَةِ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرَحْمَةً .

وَمَا مِنْ آيَةٍ تَذُمُّ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِيْنَ إِلَّا كَانَ لَهُمْ حَظٌّ مِنْ دُنُوِّ الهِمَّةِ هَوَتْ بِهِمْ فِي دَرْكٍ سَحِيْقٍ عَدْلاً مِنَ اللهِ وَحِكْمَةً .

نَصَرَتْكَ هِمَّةُ مَاجِدٍ لَوْلاَ التُّقَى لَظَنَنْتُهَا قَـدَرًا مِنَ الأَقْـدَارِ[1]

ثَانِيًا : الهِمَّةُ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ :

وَنَـحْـنُ فِي عَـيْنِ الـوُجُـودِ أُمَّـةْ ذَاتُ اشْتِهَارٍ بِعُلُوِّ الهِمَّةْ[2]

أَيْ أَخِي الكَرِيْمَ :

تَنَوَّعَتْ أَسَالِيْبُ السُّنَّةِ النَّبَوِّيَةِ فِي الأَدِلَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ عُلُوِّ الهِمَّةِ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي كِتَابِ اللهِ - سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ - .

فَمِنْ ذَلِكَ :

حَدِيْثُ أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- : قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

(١) « دِيْوَانُ أَحْمَد مُحَرَّم » (٤٤٢) .
(٢) « دِيْوَانُ أَحْمَد شَوْقِي » (١/ ٧٤٨) .

وَسَلَّمَ-: « **إِذَا قَامَتْ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيْلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ تَقُوْمَ حَتَّىٰ يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا** » [١].

وَالفَسِيْلَةُ هِيَ النَّخْلَةُ الصَّغِيْرَةُ ، وَالنَّخْلُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ سَنَوَاتٍ حَتَّىٰ يُثْمِرَ، وَالسَّاعَةُ عَلَىٰ الأَبْوَابِ ، وَالحَدِيْثُ دَلَّ عَلَىٰ عُلُوِّ الهِمَّةِ وَالمُسَارَعَةِ فِي الخَيْرَاتِ وَعَدَمِ اليَأْسِ وَالإِحْبَاطِ مَهْمَا كَانَ الأَمْرُ .

وَعَنِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا،وَيَكْرَهُ سَفَاسِفَهَا**» [٢]، فَمَنْ قَصُرَ هِمَّتَهُ عَلَىٰ مَعَالِيَ الأُمُورِ وَأَشْرَافِهَا أَحَبَّهُ اللهُ وَشَابَهَ المَلائِكَةِ ، وَمَنْ صَرَفَهَا إِلَىٰ سَفَاسِفِ وَرَاذَائِلِهَا أَبْغَضَهُ اللهُ وَشَابَهَ الحَيَوَانَ ، فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا هُوَ الأَلْيَقُ بِهَا .

وَعَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيْفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ** » [٣] .

فَدَلَّ الحَدِيْثُ عَلَىٰ أَنَّ المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ

---

(١) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٣٠٠٤) وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي«صَحِيْح الجَامع »(١٤٢٤).

(٢) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الأَوْسَطِ (٦٩٠٦) ، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ الجَامِعِ »(١٨٩٠).

(٣) رَوَاهُ مُسْلِم (٢٦٦٤) .

خَيْر ، وَمِنْهَا قُوَّةُ العَزِيْمَةِ وَالصَّبْرِ عَلَىٰ بُلُوغِ الهَدَفِ الَّذِي يَنْفَعُهُ مُسْتَعِيْنًا بِاللهِ مُتَوَكِّلاً عَلَيْهِ غَيْرَ خَوَّارٍ وَلاَ عَاجِزٍ .

وَحَثَّ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَىٰ عُلُوِّ الهِمَّةِ حَتَّىٰ فِي الدُّعَاءِ، فَعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **إِذَا سَأَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيُكْثِرْ ، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ رَبَّهُ** »[1] .

وَعَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- : قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **إِذَا سَأَلْتُمْ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ ، وَأَعْلَىٰ الجَنَّةِ ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ يَفْجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ** »[2] .

وَقَدْ تَرَبَّىٰ الصَّحَابَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- عَلَىٰ هَذَا السُّمُوِّ ، فَهَذَا رَبِيْعَةُ بْنُ كَعْبٍ الأَسْلَمِيُّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- غُلَامٌ صَغِيْرٌ مِنَ الأَصْحَابِ لَكِنَّ هِمَّتَهُ فَوْقَ السَّحَابِ ، كَانَ يَأْتِي إِلَىٰ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ غُلاَمٌ فَيُقَرِّبُ لَهُ وُضُوْءَهُ وَحَاجَتَهُ ، فَأَرَادَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يُكَافِئَهُ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ : « **سَلْنِي يَا رَبِيْعَةُ** » ، فَسَكَتَ قَلِيْلاً ... ثُمَّ قَالَ : أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الجَنَّةِ ، قَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ ؟** » ، قَالَ: هُوَ ذَاكَ ، قَالَ : « **فَأَعِنِّي عَلَىٰ نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ** »[3] .

(١) «صَحِيْحٌ» أَخْرَجَهُ ابْنُ حِبَّانَ (٨٨٩)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي (صَحِيْحِ الجَامِعِ).
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٦٣٧) .
(٣) رَوَاهُ مُسْلِم (٢٢٦) .

عُلُوُّ همَّة الرَّسُول
-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-



لَـهُ هِمَـمٌ لاَ مُنْتَهَىٰ لِكِبَارِهَا وَهِمَّتُهُ الصُّغْرَىٰ أَجَلُّ مِنَ الدَّهْرِ [١]

أَيْ أَخِي الكَرِيْمَ :

الرَّسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هُوَ القُدْوَةُ وَالأُسْوَةُ الحَسَنَةُ في عُلُوِّ الهِمَّةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالإِقْدَام فَقَدْ بَنَىٰ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ فِي أَقَلَّ مِنْ رُبْعِ قَرْنٍ وَهُوَ مَا تَقَاصَرَتْ عَنْهُ الهِمَمُ العَالِيَةُ .

وَكَانَ إِذَا حَمِيَ الوَطِيْسُ فِي الحَرْبِ ، كَانَ أَكْثَرَالنَّاس شَجَاعَةً،وَأَعْظَمُهُمْ إِقْدَامًا ،وَأَعْلاَهُمْ هِمَّةً ،قَادَ بِنَفْسِهِ خِلالَ عَشْرِ سِنِيْنَ سَبْعًا وَعِشْرِيْنَ غَزْوَةً.

وَهُوَ القَائِلُ كَمَا فِي «الصَّحِيْحَيْنِ» [٢] مِنْ حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- : « **وَالَّذِي نَفْسِيْ بِيَدِهِ ، لَوْلاَ أَنَّ رِجَالاً مِنَ المُسْلِمِيْنَ لاَ تَطِيْبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُوا فِي سَبِيْلِ اللهِ ، وَالَّذِي نَفْسِيْ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنْ أُقْتَلَ فِي سَبِيْلِ اللهِ ، ثُمَّ أُحْيَىٰ ، ثُمَّ**

(١) « دِيْوَانُ المَعَانِـي » (١/ ١٠٨) .
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٧٩٧) ومُسْلِمٌ .

أُقْتَلُ ، ثُمَّ أُحْيَىٰ ، ثُمَّ أُقْتَلُ ، ثُمَّ أُحْيَىٰ » .

هِيَ الهِمَّةُ الطُّوَلَىٰ أَجَالَتْ بِفِكْرِهَا مَبَانِيَ تَكْسُوهَا العُلَىٰ وَتُعِيرُهَا [١]

هِمَّتُهُ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ في العِبَادَةِ :

تُحَدِّثُنَا عَنْهُ – زَوْجُهُ عَائِشَةُ –رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – قَالَتْ : إِنَّ النَّبِيَّ اللَّهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّىٰ تَتَفَطَّرَ قَدمَاهُ ، فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَصْنَعَ هَذَا يَا رَسُولُ اللهِ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ومَا تَأَخَّـرَ ؟ ، قَالَ: « **أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا** » [٢] .

وَيُحَدِّثُنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ : صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَيْلَةً فَأَطَالَ القِيَامَ ، حَتَّىٰ هَمَمْتُ بِأَمْرٍ سُوْءٍ ، قِيلَ: وَمَا هَمَمْتَ بِهِ ؟ ، قَالَ : هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدَعَهُ » [٣] .

لَهُ هِمَّةٌ إِنْ قِسْتَ فَـرْطَ عُلُوِّهَا حَسِبْتَ الثُّرَيَّا فِي قَرَارِ قَلِيْبِ [٤]



(١) «تَتِمَّةُ اليَتِيْمَةِ» (٣/ ٢٤٨) .
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٤٨٣٧) وَاللَّفْظُ لَهُ ، ومُسْلِمٌ (٢٨١٩) .
(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٧٣) .
(٤) « أَحْسَنُ مَا سَمِعْتَ » (١/ ٨٨) .

هِمَّةُ المُلوكِ حَتَّى فِي أَحلَكِ الظُّرُوفِ

هِيَ الهِمَّةُ القَعْسَاءُ أَفْرَعُ دَوْحَةٍ   عَلَىٰ الأَرْضِ تُؤْتِي أُكْلَهَا لِلْمُكَابِدِ(١)

أَيْ أَخِي الكَرِيمَ :

مَهمَا كَانَتْ نَارُ الحَرْبُ تَسْعُرُ ، وَمَهمَا كَانَ الابْتِلَاءُ وَالمِحَنُ فَإِنَّ المُؤْمِنَ يَبْقَىٰ سَامِيَ الهِمَّةِ فِي كُلِّ المُلِمَّاتِ كَجَذْوَةِ نَارٍ كُلَّمَا مَالَتْ بِهَا الرِّيَاحُ شَمَالاً وَجَنُوبًا تَأْبَىٰ إِلَّا عُلُوًّا وَارْتِفَاعًا .

قَالَ اللهُ – سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ –: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦** ﴾ [آلُ عِمْرَان:١٤٦] .

وَقَالَ اللهِ–سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ –: ﴿ **أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤** ﴾ [البَقَرَةُ:٢١٤] .

وَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ – جَلَّ جَلالُهُ– أَنْ يَقْذِفَ فِي عَاقِبَةِ الأُمُورِ بِالحَقِّ

(١) « دِيْوَانُ العِيْد » (٤٩٠) .

عَلَىٰ البَاطِلِ ، فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .

قَالَ اللهُ - سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأَنْبِيَاءُ :١٨] .

وَأَنَّهُ - سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ - لاَ يَزَالُ يَزِيْدُ عَلَىٰ صَفِّ أَهْلِ الحَقِّ البَلاَءَ؛ حَتَّىٰ يُمَحِّصَهُمْ فَيُعِدَّهُمْ لِلنَّصْرِ ، وَيَزِيْدُ أَهْلَ البَاطِلِ فِي طُغْيَانِهِمْ حَتَّىٰ يَمْحَقَهُمْ بِالمُؤْمِنِيْنَ المُمَحَّصِيْنَ ، قَالَ اللهُ - سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [آلُ عِمْرَان:١٤١] .

غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لاَ يَجْرِي فِي زَمَنٍ قَصِيْرٍ، وَلاَ بِجِهَادٍ يَسِيْرٍ ، وَلَيْسَ تَحْدِيْدُ زَمَنِ النَّصْرِ، وَلاَ أَهْلِهِ الَّذِيْنَ يَخْتَارُهُم اللهُ لَهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مُوَكَّلٌ إِلَيْنَا ، بَلْ هُوَ إِلَىٰ اللهِ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ -وَحْدَهُ سُبْحَانَـهُ -يَتَّخِذُ مَنْ يَشَاءُ شُهَدَاءَ فِي سَبِيْلِهِ وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ جُنْدِهِ،وَيَصْطَفِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ -:﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [القَصَصُ:٦٨] [١] .

فَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ فَخَيْرُ زَادٍ تَتَزَوَّدُ بِهِ هُوَ سُمُوُّ الهِمَّةِ ، كَمَا قَالَ أَحْمَدُ مُحَرَّم - رَحِمَهُ اللهُ- :

وَخَـــيْرُ الـعَـتَـادِ لَهَـــا هِمَّـــةٌ   يَذُوبُ لَهَا الخَطْبُ أَوْ يَضْمَحِلُّ [٢]

---

(١) انْظُرْ : « مَوْسُوعَةُ البُحُوثِ » (٣) .

(٢) «دِيْوَانُ أَحْمَد مُـحَرَّم » (١/ ٤٦١) .

عَالِي الهِمَّةَ لاَ يَضُرُّهُ التَّفَرُّدُ

لَوْلاَ المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ   الجُـودُ يُفْقِرُ وَالإِقْـدَامُ قَتَّالُ (١)

أَيْ أَخِي الكَرِيْمَ :

عَالِي الهِمَّةِ لاَ يَضُرُّهُ انْفِرَادُهُ فِي الطَّرِيْقِ وَلاَ يَسْتَوْحِشُ مِنْ قِلَّةِ أَهْلِهَا ؛ فَإِنَّ إِبْرَاهِيْمُ -عَلَيْهِ السَّلاَمُ- كَانَ أُمَّةً وَحْدَهُ ،قَالَ اللهُ-سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَى-: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النَّحْلُ:١٢٠] .

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَة -رَحِمَهُ اللهُ- : « أَيْ : كَانَ مُؤْمِنًا وَحْدَهُ، وَكَانَ النَّاسُ كُفَّارًا جَمِيْعًا » (٢).

وَفِي «الصَحِيْحَيْنِ » (٣) أَنَّهُ قَالَ لِزَوْجِهِ سَارَّةَ : « **يَا سَارَّةُ ! لَيْسَ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ** » .

وَعَالِي الهِمَّةِ كَمَا قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللّهُ- :

« لَا يَكْتَرِثُ بِمُخَالَفَةِ النَّاكِبِينَ عَنْهُ لَهُ ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الأَقَلُّونَ قَدْرًا، وَإِنْ

---

(١) « أَبُو الطَّيِّب مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ » (١/ ١٢٧) .
(٢) « مَجْمُوع الفَتَاوَىٰ » (٥/ ٤٣٦) .
(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٤٧٩١) ، ومُسْلِمٌ (٢٣٧١) .

كَانُوا الْأَكْثَرِينَ عَدَدًا، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «عَلَيْكَ بِطَرِيقِ الْحَقِّ، وَلَا تَسْتَوْحِشْ لِقِلَّةِ السَّالِكِينَ،وَإِيَّاكَ وَطَرِيقَ الْبَاطِلِ،وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ»، وَكُلَّمَا اسْتَوْحَشْتَ فِي تَفَرُّدِكَ فَانْظُرْ إِلَىٰ الرَّفِيقِ السَّابِقِ، وَاحْرِصْ عَلَىٰ اللَّحَاقِ بِهِمْ، وَغُضَّ الطَّرْفَ عَمَّنْ سِوَاهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِذَا صَاحُوا بِكَ فِي طَرِيقِ سَيْرِكَ فَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّكَ مَتَىٰ الْتَفَتَّ إِلَيْهِمْ أَخَذُوكَ وَعَاقُوكَ »[1].

قَالَ الشَّاعِرُ:

يَكْسَرُ أَصْنَامُ النُّفُوس بِعَزْمِهِ ... مِنَ الهِمَّةِ العيا خفيًا وَخَافِيَا

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ بْن مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللّهُ-:

يُذِلُّ مُلُوكَ الأَرْضِ خَائِرُ عَزْمِهِمْ ... وَمِنْ حَوْلِهِمْ تِلْكَ الجُيُوشُ البَوَاسِلُ

أَلَا إِنَّ جَيْشَ المَرْءِ هِمَّاتُ نَفْسِهِ ... أُولَئِكَ فِي الدُّنْيَا الرِّجَالُ الأَوَائِلُ



(١) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ » (١/ ٢١) .

حَاجَةُ طَالب العِلْم لِعُلُوِّ الهِمَّة

فَـقُـلْ لِمُـرْجِّـي مَـعَـالِي الأُمُــورِ بِغَيْرِ اجْتِهَادٍ : رَجَوْتَ المُحَالَا [(١)]

أَيْ أَخِي الكَرِيْمَ :

حَاجَةُ طَالِبِ العِلْمِ لِعُلُوِّ الهِمَّةِ كَحَاجَتِهِ لِلطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالهَوَاءِ الَّذِي عَلَيْهِ قِوَامُ حَيَاتِهِ ، بَلْ أَشَدُّ .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- :

« لاَ بُدَّ لِلسَّالِكِ مِنْ هِمَّةٍ تُسَيِّرُهُ وَتُرَقِّيْهِ ، وَعِلْمٍ يُبَصِّرُهُ وَيَهْدِيْهِ ، فَلاَ بُدَّ لِكُلِّ طَالِبِ عِلْمٍ بِجَانِبِ عِلْمِهِ مِنْ هِمَّةٍ تُسَيِّرُهُ وَتُرَقِّيْهِ فِي مَدَارِجِ الطَّلَبِ، بِهَا يَسْتَعْلِي طَالِبُ العِلْمِ عَلَىٰ سَفَاسِفِ الأُمُورِ ، وَيَتَحَلَّىٰ بِإِرَادَةٍ مِنْ حَدِيْدٍ ، إِذْ هُوَ مُقْدِمٌ عَلَىٰ أَمْرٍ عَظِيْمٍ حَالُهُ ، خَطِيْرٍ شَأْنُهُ ، أَلاَ وَهُوَ وِرَاثَةُ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الدَّعْوَةِ وَالتَّعْلِيْمِ وَالبَلاَغِ .

فَلاَ يَصْلِحُ لِهَذِهِ المَنْزِلَةِ مَنْ سَفُلَتْ هِمَّتُهُ ، فَحَامَتْ حَوْلَ الدَّنَايَا ، أَوْ ضَعُفَتْ إِرَادَتُهُ ، فَانْكَسَرَتْ أَمَامَ الصِّعَابِ وَالبَلاَيَا ... وَصَاحِبُ الهِمَّةِ العَالِيَةِ أَمَانِيْهِ حَائِمَةٌ حَوْلَ العِلْمِ وَالإِيْمَانِ ، وَالعِلْمِ الَّذِي يُقَرِّبُهُ إِلَىٰ اللهِ

(١) « مُـحَاضَرَاتُ الأُدَبَاء » (١/ ١٩٩) .

وَيُدْنِيْهِ مِنْ جِوَارِهِ ، فَأَمَانِيُّ هَذَا إِيْمَانٌ وَنُورٌ وَحِكْمَةٌ ، وَأَمَانِيُّ أُولَئِكَ خِدَعٌ وَغُرُورٌ » [١] .

هَــذَا زَمَــانٌ لاَ تَــوَسُّــطَ عِنْدَهُ يَبْغِي المَغَامِرَ عَالِيًا وَجَلِيْلاً
كُنْ سَابِقًا فِيْهِ أَوْ ابْقَ بِمَعْزِلٍ لَيْسَ التَّوَسُّطُ لِلنُّبُوغِ سَبِيْلاً [٢]



(١) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْـنَ » (١/ ٤٥٧) .
(٢) « دَوَاوِيْنُ الشِّعْرِ العَرَبِـيّ » (٩١/ ٢٦٦) .

أَعْلَى الهِمَمِ فِي طَلَبِ عِلْمِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ

قَدْ هَيَّأُوكَ لِأَمْـرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرْعَىٰ مَعَ الهَمَلِ [1]

أَيْ أَخِي الكَرِيْمَ :

لَا يَعْزُبْ عَنْكَ أَنَّ العِلْمَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تُشْحَذَ لَهُ الهِمَمُ وَتُحَدَّ لَهُ العَزَائِمُ هُوَ عِلْمُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- :

« أَعْلَىٰ الهِمَمِ فِي طَلَبِ عِلْمِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ وَالفَهْمِ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَفْسُ المُرَادِ وَعِلمِ حُدُودِ المُنْزَلِ وَأَخَسُّ هِمَمِ طُلَّابِ العِلْمِ قِصَرُ هِمَّتِهِ عَلَىٰ تَتَبُّعِ شَوَاذِّ المَسَائِلِ وَمَا لَمْ يُنْزَلْ وَلَا هُوَ وَاقِعٌ أَوْ كَانَتْ هِمَّتُهُ مَعْرِفَةُ الاخْتِلَافِ وَتَتَبُّعَ أَقْوَالِ النَّاسِ، وَلَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الصَّحِيْحِ مِنْ تِلْكَ الأَقْوَالِ وَقَلَّ أَنْ يَنْتَفِعَ وَاحِدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ بِعِلْمِهِ » [2].

وَمَا زَادَنِي بُعِدِي سِوَىٰ بُعْدِ هِمَّةٍ كَمَا زَادَ نُورًا فِي تَبَاعُدِهِ البَدْرُ [3]

---

(١) « شَـرْحُ لَامِيَّةِ العَجَمِ » الدِّمِيْـرِيِّ (٧) .

(٢) « الفَوَائِدُ » (٦١) .

(٣) « دِيْوَانُ أُسَامَةَ بْن مُنْقِذ » (٤٢٨) .

لِتَكُنْ هِمَّتُكَ الآخِرَةَ

بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الكُبْرَىٰ فَلَمْ أَرَهَا   تُنَالُ إِلَّا عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ [1]

أَيْ أَخِي الكَرِيْمَ : لِتَكُنْ هِمَّتُكَ الآخِرَةَ ، يَكْفِكَ اللهُ هَمَّ دُنْيَاكَ ، بَلْ إِنَّهَا لَتَأْتِيْكَ رَاغِمَةً ذَلِيْلَةً ، وَتَأَمَّلْ إِلَىٰ قَوْلِ نَبِيِّكَ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : « **مَنْ كَانَتْ الآخِرَةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ** » [2].

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللّهُ- : « مَنْ عَشِقَ الدُّنْيَا نَظَرَتْ إِلَىٰ قَدْرِهَا عِنْدَهُ فَصَيَّرَتْهُ مِنْ خَدَمِهَا وَعَبِيْدِهَا وَأَذَلَّتْهُ ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا نَظَرَتْ إِلَىٰ كِبَرِ قَدْرِهِ فَخَدَمَتْهُ ، وَذَلَّتْ لَهُ » [3].

فَتَىً هَمُّـه مَا كَانَ لِلْبِرِّ وَالتُّقَى   وَمَغْنَمُهُ مَا كَانَ لِلأَجْرِ والحَمْدِ [4]

---

(١) « دِيْوَانُ أَبِي تَمَّامٍ » (١/ ٢٣) .
(٢) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِي(٢٤٦٥) ،وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ– فِي «صَحِيْحِ الجَامِعِ» (٦٥١٠) عَنْ أَنَسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–.
(٣) « الفَوَائِدُ » (٩٩) .
(٤) « دِيْوَانُ ابْنِ الخَيَّاط » (٣٠٤) .

لاَ تَقِفْ بِكَ هِمَّتُكَ دُونَ اللّهِ

سَمَوْتَ إِلَىٰ العَلْيَاءِ بِغَيْرِ مَشَقَّةٍ فَنِلْتُ ذُرَاهَا لاَ دَنِيًّا وَلاَ وَغْلاً [١]

أَيْ أَخِي الكَرِيْمَ :

لاَ تَقِفْ بِكَ هِمَّتُكَ دُونَ اللهِ ، فَعُلُوّ هِمَّةِ المَرْءِ أَنْ يَرْضَىٰ اللهُ عَنْهُ ، لِأَنَّ رِضَىٰ اللهَ غَايَةٌ لاَ تُتْرَكُ ، وَ رِضَىٰ الخَلْقِ غَايَةٌ لاَ تُدْرَكُ .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللّهُ- :

« عُلُوِّ الهِمَّةِ لاَ تَقِفُ دُونَ اللهِ ، وَلاَ تَتَعَوَّضُ عَنْهُ بِشَيْءٍ سِوَاهُ ، وَلَا تَرْضَى بِغَيْرِهِ بَدَلاً مِنْهُ ، وَلاَ تَبِيْعُ حَظَّهَا مِنَ اللهِ وَقُرْبِهِ والأُنْسِ بِهِ والفَرَحِ والسُّرُورِ والابْتِهَاجِ بِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الحُظُوظِ الخَسِيْسَةِ الفَانِيَةِ » [٢].

قَالَ الشَّاعِرُ :

وَكَانَ فُؤَادِيْ خَالِيًا قَبْلَ حُبُّكُمْ وَكَانَ بِذِكْرِ الخَلْقِ يَلْهُو وَيَمْرَحُ
فَلَمَّا دَعَا قَلْبِي هَـوَاكَ أَجَابَهُ فَلَسْتُ أَرَاهُ عَنْ فَنَائِكَ يَبْرَحُ [٣]

---

(١) « دِيْوَانُ حَسَّانُ بْن ثَابِتٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- » (١/ ١٩٨) .
(٢) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْـنَ » (٣/ ١٧١) .
(٣) « عُقَلاَءُ المَجَانِيْـن » لابْن حَبِيْب النِّسَابُوريّ (١٠٤) .

وَقَالَ آخَرُ :

قَدْ حَلَّقَتْ بِكَ فِي المَعَالِي هِمَّةٌ   لاَ تَسْتَطِيْعُ تَجُوزُهَا الجَـوْزَاءُ
فَاسْلَمْ ؛ فَإِنَّك لِلمَسَاعِي غَايَةٌ   وَافْخَرْ فَإِنَّك لِلسَّمَاءِ سَمَاءُ [1]



(١) « دِيْوَانُ ابْنُ القَيْسَرَانِـيّ » (٦) .

البَابُ الثَّانيّ
أَسْبَابُ دُنُوِّ الَهِمَّةِ

❋ ضَعْفُ الإِيْمَان .

❋ الانْحِرَافُ العَقَدِيُّ .

❋ المَعَاصِي .

❋ الخَوْفُ والهَمُّ والحَزَنُ .

❋ مُجَالَسَةُ البَطَّالِيْنَ والمُثَبِّطِيْنَ .

❋ الانْهِمَاكُ فِي الدُّنْيَا .

❋ الكَسَلُ .

❋ الإِحْسَاسُ بِالفَشَلِ .

❋ التَّسْوِيْفُ وَالتَّمَنِّي .

❋ التَّرَدُّدُ .

❋ الغَفْلَةُ .

❋ الفُتُوْرُ .



* الوَهَنُ .

* الانْشِغَالُ بِسَفَاسِفِ الأُمُورِ .

* التَّرَفُ .

* ضَيَاعُ الوَقْتِ .

* الرِّضَىٰ بِالدُّوْنِ .

* اليَأْسُ .

* التَّقْصِيْرُ فِي العِبَادَةِ .

* الانْشِغَالُ بِمَا لاَ يُعْنِي المَرْءِ .

* الدُّيُونُ .

* العِشْقُ .



البَابُ الثَّانيّ
أَسْبَابُ دُنُوِّ الهِمَّةِ



وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْم بْن مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللّهُ-:

مَالِي أَرَىٰ النَّاس قَدْ أَعْمَىٰ بَصَائِرَهُمْ ... مَلْؤُ البُطُونِ وَحُبُّ اللَّهْوِ والتَّرَفِ
أَيْنَ الرِّجَالُ الأُلَىٰ هِمَّاتُهُم بَلَغَتْ ... بِهِمْ سَمَاءَ العُلَا وَالمَجْدِ وَالشَّرَفِ

أَيْ أَخِي الكَرِيْم:

لِدُنُوِّ الهِمَّةِ أَسْبَابٌ تَقِفُ فِي طَرِيْقِ العَبْدِ وَلاَ بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ تِلْكَ الأَسْبَابِ فَمَعْرِفَةِ الدَّاء نِصْفُ الدَّوَاء .

فَمِنْهَا مَا يَأْتِي:

١ ـ ضَعْفُ الإِيْمَانِ:

مُـتَـجَـرِّدٌ لِلهِ حَـشْـوُ قَمِيْصِهِ ... تَقْوَىً ، وَمِـلْءُ فُـؤَادِهِ إِيْـمَانُ [١]

ضَعْفُ الإِيْمَان - أَخِي الكَرِيْمَ - مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابُ دُنُوِّ الهِمَّةِ ؛ فَالإِيْمَانُ

(١) « دِيْوَانُ أَحْـمَد مُـحَرَّم » (١٠٠٧) .

جَذْوَةٌ تَتَّقِدُ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا فَتَقُودُهُ إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ وَتَنْأَىٰ بِهِ عَن كُلِّ شَرٍّ ، وَتَأَمَّلْ -رَعَاكَ اللهُ- إِلَىٰ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيْمَانِ**» [(١)].

فَمَتَىٰ سَمَتْ بِكَ هِمَّتُكَ إِلَىٰ تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ بِيَدِكَ فَذَلِكَ الإِيْمَانُ حِيْنَ يَزْدَادُ ثُمَّ بِلِسَانِكَ ، ثُمَّ بِقَلْبِكَ ، وَمَا دُونَ ذَلِكَ فَإِيْمَانٌ ضَعِيفٌ وَهِمَّةٌ مَرِيْضَةٌ تُوشَكُ أَنْ تَمُوتَ .

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ الأَنْدَلُسِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- : فِي قَوْلِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيْمَانِ** » أَيْ لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيْمَانِ شَيْءٌ » [(٢)] .

فَيَا قَادَةَ الجِيْلِ الْمُؤَمِّلِ أَنْتُمُ ... مَنَابِرُ إِيْمَانٍ فَشُدُّوا لَهُ أَزْرَا
فَمَا هِيَ إِلَّا دَعْوَةٌ وَعَزِيْمَةٌ ... يُنَظِّمُهَا الإِسْلَامُ أَنْتُمْ بِهِ أَحْرَىٰ [(٣)]

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٤٩) .
(٢) « المَعَانِي » (١/ ٣٦) .
(٣) « المَذَاهِبُ الأَدَبِيَّةِ » (١٩٦) .

٢ـ الانْحِرَافُ العَقَدِيُّ :

تَعُودُ الأَمَـانِيُّ بَعْدَ انْـصِرافٍ وَيَعْتَدِلُ الشَّيْءُ بَعْدَ انْحِرَافِ (١)

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

مَا مِنْ شَكٍّ أَنَّ الأُمَّةَ الزَّائِغَةَ فِي عَقِيْدَتِهَا المُنْحَرِفَةَ عَنْ مِنْهَاجِ دِيْنِهَا القَوِيْم لاَ تَلْبَثُ أَنْ تَهْوِي مِنْ عَلْيَائِهَا ، وَتَتَنَزَّلَ مِنْ شَامِخِ عِزِّهَا ... وَلَو تَتَبَّعْنَا تَارِيْخَ أُمَّتِنَا لَوَجَدْنَا مِصْدَاقَ ذَلِكَ .

فَمَا الَّذِي أَضَاعَ الأَنْدَلُسَ !! ، وَقَادَ النَّصَارَىٰ إِلَىٰ احْتِلاَلِهَا وَإِذْلاَلِ أَهْلِهَا؟!!، أَلَيْسَ هُوَ ضَعْفُ العَقِيْدَةِ والبُعْدُ عَنِ الدِّيْن .

مَا الَّذِي سَلَّطَ التَّتَارَ ، فَشَنُّوا غَارَتَهُمُ الشَّعْوَاءَ عَلَىٰ بِلاَدِ الإِسْلاَمِ وَالَّتِي رَاحَ ضَحِيَّتَهَا قُرَابَةُ المُلْيُونَيْنِ ، وَقُوِّضَتْ بِسَبَبِهَا أَطْنَابُ الخِلاَفَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ العَبَّاسِيَّةِ ؟! .

أَلَيْسَ هُوَ زَيْغَ العَقِيْدَةِ وَالانْحِرَافَ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيْلِ ، وَلَمَّا دَخَلَ التَّتَارُ بغْدَادَ لَمْ يَعُدْ النَّاسُ لِدِيْنِهِمْ الحَقِّ وَيَدْعُوا اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ ، بَلْ وُجِدَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْجَأُ لأَصْحَابِ القُبُورِ !! ، فَيَسْتَغِيْثُ بِهِمْ ، وَيَلْتَمِسُ النَّصْرَ مِنْهُمْ ، كَمَا قَالَ أَحَدُهُمْ :

(١) « نَفْحُ الطِّيْبِ » (٦/ ٢٠٥) .

يَـا خَـائِـفِـيْنَ مِـنَ الـتَّـتَرْ ... لُـوْذُوا بِقَبْـرِ أَبِي عُـمَـرْ [١]

فَكَانَ ذَلِكَ الانْحِرَافُ سَبَبًا في دُنُوِّ هِمَّتِهِمْ ، حَتَّىٰ أَنَّ امْرَأَةً مِنَ التَّتَارِ تَقُولُ لِلمُسْلِمِ : اجْلِسْ مَكَانَكَ حَتَّىٰ أَلْتَمِسَ سَيْفًا ، فَيَجْلِسُ وَهِمَّتُهُ عِنْدَ الجِيْلَانِيِّ وَأَبِي عُمَرَ !!! .

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ بْنُ مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللّهُ- :

إِذَا كَتَبَ اللهُ المَـذَلَّـةَ فِي امْـرِئٍ ... فَلَيْسَ لَهُ مِنْهَا فِكَاكٌ وَلاَ هَجْرُ

٣ـ المَعَاصِي :

وَمُشَتَّتُ العَزَمَاتِ يُنْفِقُ عُمْرَهُ ... حَـيْرَانَ لاَ ظَفَرٌ وَلاَ إِخْفَاقُ [١]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

وَمِنْ أَسْبَابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ – أَخِي الكَرِيْم – المَعَاصِي ، فَهِيَ أَحَدُ أَسْبَابِ انْحِطَاطِ الهِمَمِ؛ إِذْ كَيْفَ يَنْطَلِقُ الإِنْسَانُ لِلمَعَالِي وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِالشَّهَوَاتِ مُثْقَلٌ بِالذُّنُوبِ ، مُنْهَكُ القُوَىٰ بِالمَعَاصِي ؟!!! .

(١) « الهِمَّةُ العَالِيَةُ » لِلحَمْدِ (٩٢) .
(٢) « دِيْوَانُ عَبْدُ الله الخَفَاجِي » (٢٠٢) .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّه- :

« فَالذَّنْبُ يَحْجُبُ الوَاصِلَ ، وَيَقْطَعُ السَّائِرَ ، وَيُنْكِّسُ الطَّالِبَ، وَالقَلْبُ إِنَّمَا يَسِيْرُ إِلَىٰ اللهِ بِقُوَّتِهِ ، فَإِذَا مَرِضَ بِالذُّنُوبِ ضَعُفَتْ تِلْكَ القُوَّةُ الَّتِي سَتُسَيِّرُهُ فَإِذَا زَالَتْ بِالكُلِّيَّةِ انْقَطَعَ عَنِ اللهِ انْقِطَاعًا يَبْعُدُ تَدَارُكُهُ ، فَاللهُ المُسْتَعَانُ» [١] .

وَقَالَ -رَحِمَهُ اللهُ- : « إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا رَأَىٰ مِنَ العَبْدِ ضَعْفَ عَزِيْمَةٍ وَهِمَّةٍ وَمَيْلاً إِلَىٰ هَوَاهُ ، طَمِعَ فِيْهِ وَصَرَعَهُ وَأَلْجَمَهُ بِلِجَامِ الهَوَىٰ ، وَسَاقَهُ حَيْثُ أَرَادَ ، وَمَتَىٰ أَحَسَّ مِنْهُ بِقُوَّةِ عَزْمٍ وَشَرَفِ نَفْسٍ وَعُلُوِّ هِمَّةٍ ، لَمْ يَطْمَعْ فِيْهِ إِلَّا اخْتِلَاسًا»[٢] .

وَمِمَّا شَجَانِي والشُّجُونُ كَثِيْرَةٌ ... ذُنُوبٌ عِظَامٌ أَسْبَلَتْ عَبَرَاتِي
إِلَىٰ اللهِ أَشْكُو جَهْلَ نَفْسِي فَإِنَّهَا ... تَمِيْلُ إِلَىٰ الرَّاحَاتِ والشَّهَوَاتِ [٣]

وَقَالَ الإِمَامُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ المُبَارَك -رَحِمَهُ اللَّه- :

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيْتُ القُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا [٤]

---

(١) « الجَوَابُ الكَافِي » (٤٩) .
(٢) « رَوْضَةُ المُحِبِّيْن » (١/ ٤٧٤) .
(٣) « دِيْوَانُ أَبِي إِسْحَاق الإِلبيري » (٥٢) .
(٤) « دِيْوَانُ ابْنُ المُبَارَك » (٢٦) .

٤ـ الخَوْفُ والهَمُّ والحَزَنُ :

كُــلُّ دَاءٍ فِي سُـقُـوطِ الهِـمَـمِ يَجْعَلُ الأَحْيَاءَ مِثْلَ الرِّمَمِ [١]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

وَهَذِهِ الثَّلاثَةُ - أَخِي الكَرِيْم- مِنْ أَسْبَاب دُنُوِّ الهِمَّةِ ، بَلْ مِنَ الآفَاتِ الَّتِي تُوهِنُ الهِمَّةِ، وَتُضْعِفُ العَزِيْمَةَ وَتَدْفَعُ إِلَىٰ الفُتُور ، وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَثِيْرًا مَا يَسْتَعِيْذُ بِاللهِ مِنْهَا فَيَقُولُ : « **اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ والكَسَلِ،والبُخْلِ والجُبْنِ ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**» [٢] .

فَاسْتَعَاذَ مِنْ ثَمَانِيَةِ أَشْيَاءِ كُلُّ اثْنَيْنِ مِنْهَا قَرِيْنَان ، فَالهَمِّ وَالحَزَنِ قَرِيْنَانِ وَهُمَا مِنْ آلاَمِ الرُّوْحِ وَمُعَذِّبَاتِهَا ، وَالفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الهَمَّ تَوَقُّعُ الشَّرِّ فِي المُسْتَقْبَلِ، وَالحَزَنِ التَّأَلُّمُ عَلَىٰ حُصُولِ المَكْرُوهِ فِي المَاضِي أَوْ فَوَاتِ المَحْبُوب ، وَكِلاَهُمَا تَأَلُّمٌ وَعَذَابٌ يَرِدُ عَلَىٰ الرَّوْحِ ، فَإِنْ تَعَلَّقَ بِالمَاضِي سُمِّيَ حُزْنًا ، وَإِنَّ تَعَلَّقَ بِالمُسْتَقْبَلِ سُمِّيَ هَمًّا » [٣].

---

(١) « دِيْوَانُ مُحَمَّد إِقْبَال » (٣٦) .

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٧٣٦) ، وَمُسْلِمٌ (٢٧٦٠) ، عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

(٣) « بَدَائِعُ الفَوَائِد » لابْن القَيِّم (٢/ ٢٠٧) .

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْم بْنُ مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللّهُ- :

أَرَىٰ الهَمَّ وَالأَحْزَانَ تَفْتِكُ بِالفَتَى كَمَا يُهْلِكُ الأَجْسَادَ سُمُّ الأَرَاقِمِ

فَفِي سَمْعِهِ وَقْرٌ وَفِي قَلْبِهِ عَمَىً وَفِي عَقْلِهِ الأَفْكَارُ مِثْلُ الطَّلَاسِمِ

٥ـ مُجَالَسَةُ البَطَّالِيْنَ والمُثَبِّطِيْنَ :

وَفِي السَّمَاءِ طُيُورٌ اسْمُهَا البُقَعُ إِنَّ الطُّيُورَ عَلَىٰ أَشْكَالِهَا تَقَعُ [١]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

مِنْ أَسْبَابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ -أَخِي الكَرِيْم- مُجَالَسَةُ البَطَّالِيْنَ وَالقَاعِدِيْنَ الَّتِي تُوهِنُ القُوَى، وَتُضْعِفُ العَزَائِمَ ، وَتُقْعِدُ الهِمَمَ، بِمَا يَعْلَقُ بِالقَلْبِ مِنَ الشُّبَهِ فِي أَقْوَالِهِمْ ، وَمَا يَحْصُلُ بِمُجَالَسَتِهِمْ مِنْ ضَيَاعِ الوَقْتِ وَالانْشِغَالِ بِسَفَاسِفِ الأُمُورِ ، وَكُلَّمَا أَرَدْتَ العَمَلَ ثَبَّطَكَ وَقَالَ : أَمَامَكَ لَيْلٌ طَوِيْلٌ فَارْقُدْ » .

فَاحْذَرْ مُجَالَسَةَ البَطَّالِيْنَ « فَإِنَّ طَبْعَكَ يَسْرِقُ مِنْهُمْ وَأَنْتَ لاَ تَدْرِي ، وَلَيْسَ إِعْدَاءُ الجَلِيْسِ جَلِيْسَهُ بِمَقَالِهِ وَفِعَالِهِ فَقَطْ ، بَلْ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ ،وَالنَّظَرُ فِي الصُّوَرِ يُورِثُ فِي النُّفُوسِ أَخْلاَقًا مُنَاسِبَةً لِخُلُقِ المَنْظُورِ إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّ مَنْ دَامَتْ رُؤْيَتُهُ لِلمَسْرُورِ سُرَّ ، أَوْ المَحْزُونِ حَزِنَ ، وَمِنَ المُشَاهَدِ أَنَّ المَاءَ وَالهَوَاءَ يَفْسُدَانِ بِمُجَاوَرَةِ الجِيْفَةِ ، فَمَا الظَّنُّ بِالنُّفُوسِ البَشَرِيَّةِ الَّتِي مَوْضِعُهَا لِقُبُولِ

(١) « مِنْ رَحِيْقِ الشِّعْر » (١٧) .

صُوَرِ الأَشْيَاءِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا »[١].

وَلِلّهِ دَرُّ الخَوَارِزْمِيِّ :

لاَ تَصْحَبِ الكَسْلَانَ فِي حَالاَتِهِ   كَمْ صَالِحٍ بِفَسَادِ آخَرَ يَفْسُدُ
عَدْوىٰ البَلِيْدِ إِلَىٰ الجَلِيْدِ سَرِيْعَةٌ   وَالجَمْرُ يُوضَعُ فِي الرَّمَادِ فَيَخْمُدُ[٢]

وَقَالَ غَيْرُهُ :

لَيْسَ البَطَالَةُ والكَسَلْ   بِالجَالِبَتَيْنِ لَكَ العَسَلْ
فَانْصَبْ فَإِنَّ اللهَ قَدْ   حَثَّ المُطِيْعَ عَلَىٰ العَمَلْ[٣]

٦ ـ الانْهِمَاكُ فِي الدُّنْيَا :

أَظْمَتْنِيَ الدُّنْيَا فَلَمَّا جِئْتُهَا   مُسْتَسْقِيًا مَطَرَتْ عَلَيَّ مَصَائِبَا[٤]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

مِنْ أَسْبَابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ - أَخِي الكَرِيْم - الانْهِمَاكُ فِي الدُّنْيَا ، فَقَدْ تَكُونُ البِدَايَةُ بِدَعْوَىٰ إِعْفَافِ النَّفْسِ وَالأَهْلِ وَإِقَامَةِ المُرُوْءَةِ ، وَهَذَا مِنْ عُلُوِّ الهِمَّةِ

(١) « فَيْضُ القَدِيْرِ » لِلمنَاوِيِّ (٥/ ٥٠٦) .
(٢) « التَّذْكِرَةُ السَّعدِيَّةِ فِي الأَشْعَارِ العَرَبِيَّة » (٤٠) .
(٣) « رَوْضُ الأَخْيَارِ المُنْتَخَبُ مِنْ رَبِيْعِ الأَبْرَار » (٣٨٨) .
(٤) « أَبُو الطَّيِّبِ المُتنبِّي مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ » (٣٥) .

لاَ مِنْ دُنُوِّهَا .

لَكِنْ مَا يَلْبَثُ الأَمْرُ حَتَّىٰ يَنْقَلِبَ إِلَىٰ تَحْصِيْلٍ مَحْض ، وَحُبٍّ لِلدُّنْيَا وَالانْغِمَاسِ فِيْهَا ، وَمِنْ ثُمَّ يَقْسُو قَلْبُ الشَّخْصِ وَتَنْحَطُّ هِمَّتُهُ .

وَلِلّهِ دَرُّ المُتَنَبِّي حَيْثُ قَالَ :

وَمَنْ يَجِدِ الطَّرِيْقَ إِلَىٰ المَعَالِي ... فَلاَ يَذَرِ المَطِيَّ بِلاَ سِنَامِ
وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا ... كَنَقْصِ القَادِرِيْنَ عَلَىٰ التَّمَامِ [١]

وَقَالَ غَيْرُهُ :

فَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا جَزَاءً لِمُحْسِنٍ ... إِذَنْ لَمْ يَكُنْ فِيْهَا مَعَاشٌ لِظَالِمِ
لَقَدْ جَاعَ فِيْهَا الأَنْبِيَاءُ كَرَامَةً ... وَقَدْ شَبِعَتْ فِيْهَا بُطُونُ البَهَائِمِ [٢]

وَقَالَ غَيْرُهُ :

وَإِنْ امْرءًا دُنْيَاهُ أَكْبَرُ هَمِّهِ ... لَمُسْتَمْسِكٌ مِنْهَا بِحَبْلِ غُرُوْرِ [٣]

(١) « دِيْوَانُ المُتَنَبِّي » (١٢٧) .
(٢) « المَحَاسِنُ وَالأَضْدادِ » (١٦٦) .

٧ـ الكَسَلُ :

لَمْ يَشْتَرِ الشَّهْدَ شَخْصٌ صِنْوُهُ الكَسَلُ فَلَسْتُ أَوَّلَ صَبٍّ خَانَهُ الأَمَلُ [١]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

مِنْ أَسْبَابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ - أَخِي الكَرِيْم - الكَسَلُ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الكَسَلُ ، هُوَ التَّثَاقُلُ عَنِ الشَّيْءِ وَالقُعُودُ عَنْ إِتْمَامِهِ ، وَهُوَ قَاتِلٌ لِلهِمَّةِ مُذْهِبٌ لَهَا ، وَهُوَ يَسْرِي فِي النَّاسِ عَلَىٰ مُخْتَلَفِ طَبَقَاتِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ، وَأَحْوَالِهِمْ، لاَ يَكَادُ يَنْجُو مِنْهُ أَحَدٌ.

كَمْ هِمَّةٍ دَفَعَتْ جِيْلاً ذُرَا شَرَفٍ وَنَوْمَةٍ هَدَمَتْ بُنْيَانَ أَجْيَالِ [٢]

وَالكَسَلُ شَرٌّ اسْتَعَاذَ مِنْهُ النَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَلْ كَانَ كَثِيْرًا مَا يَسْتَعِيْذُ مِنْهُ .

فَعَنْ أَنَس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَثِيْرًا يَقُولُ : « **اللَهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ والكَسَلِ ، والجُبْنِ والبُخْلِ ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ ، وَقَهْرِ الرِّجَالِ** » [٣] .

---

(١) «الإِفَادَاتُ وَالإِنْشَادَات» (٧) .

(٢) «مَقَايِسُ اللُّغَة» (٥/ ١٧٨) .

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٧٣٦) ، وَمُسْلِمٌ (٢٧٠٦) ، عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

وَاحَسْرَتَاهُ تَقَضَّىٰ العُمْرُ وَانْصَرَمَتْ ... سَاعَاتُهُ بَيْنَ ذُلِّ العَجْزِ وَالكَسَلِ

وَالقَوْمُ قَدْ أَخَذُوا دَرْبَ النَّجَاةِ وَقَدْ ... سَارُوا إِلَىٰ المَطْلَبِ الأَعْلَىٰ عَلَىٰ مَهَلِ [(١)]

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْم بْن مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللّه- :

أَيَّامُنَا تَجْرِي بِنَا وَكَأَنَّمَا ... بَيْنَ الرِّيَاح وَبَيْنَهُنَّ سِبَاق

٨ـ الإِحْسَاسُ بِالفَشَلِ :

وَلَسْتُ كَالمَرْءِ يُؤْتَىٰ عِنْدَ عَزْمَتِهِ ... مِنَ التَّهَوُّرِ يَوْمًا لاَ وَلاَ الفَشَلِ [(٢)]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

مِنْ أَسْبَابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ - أَخِي الكَرِيْم - الإِحْسَاسُ بِالفَشَلِ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَقُومُ بِهِ الإِنْسَانُ فَهُوَ -دَائِمًا- يَخْشَىٰ اقْتِحَامَ الأَعْمَالِ وَيُحْجِمُ عَنْهَا وَهَذَا نَاجِمٌ عَنْ ضَعْفِ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللهِ الَّذِي مِنْ أَسْبَابِهِ ضَعْفُ الثِّقَةِ بِالنَّفْسِ .

تَرَىٰ الشَّخْصَ يَهْرُبُ مِنْ أَيِّ عَمَلٍ وَيَتَرَدَّدَ قَبْلَ الدُّخُولِ فِيْهِ فَإِذَا كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ مِنَ النَّجَاحِ تَرَكَهُ إِلَىٰ غَيْرِ رَجْعَةٍ ، وَهَذَا خُلُقٌ فَاشٍ فِي كَثِيْرٍ مِنَ النَّاسِ سِيَّمَا النِّسَاءُ .

---

(١) «دِيْوَانُ ابْنُ الرُّومِيّ» (٣٦٨٥) .

وَلِلّهِ دَرُّ القَائِلِ :

وَمُشَتَّتُ العَزَمَاتِ يُنْفِقُ عُمْرَهُ حَيْرَانَ ، لاَ ظَفَرُ وَلَا إِخْفَاقُ [(١)]

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْم بْن مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللّه- :

خَائِرُ العَزْمِ مُحِبُّ لِلكَسَلْ يَكْرَهُ التَّفْكِيْرَ فِي أَيِّ عَمَلْ
لَمْ تُمِتْ هِمَّتُهُ لَكِنَّهُ يَشْتَكِي الإِحْسَاسَ دَوْمًا بِالفَشَلْ
إِنَّ مَنْ لَمْ يَتَذَوَّقْ صَبْرًا لَمْ يَذُقْ فِي عُمْرِهِ طَعْمَ العَسَلْ

٩ـ التَّسْوِيْفُ وَالتَّمَنِّي :

مَنْ كَانَ مَرْعَىٰ عَزْمِهِ وَهُمُوْمِهِ رَوْضَ الأَمَانِي لَمْ يَزَلْ مَهْزُوْلاً [(٢)]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

مِنْ أَسْبَابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ - أَخِي الكَرِيْم - التَّسْوِيْفُ وَالتَّمَنِّي وَهُمَا صِفَةُ بَلِيْدِ الحِسِّ عَدِيْمِ المُبَالاَةِ كُلَّمَا هَمَّتْ نَفْسُهُ بِخَيْرٍ ، إِمَّا أَنْ يُعَقِّبَهَا بِـ «سَوْفَ» حَتَّىٰ يُفَاجِئَهُ المَوْتُ ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المُنَافِقُونَ:١٠] ، وَإِمَّا أَنْ يَرْكَبَ بَحْرَ التَّمَنِّي ... فَيَوَدُّ النَّجَاحَ وَلاَ يَزِيْدُ أَنْ يَدْفَعَ ثَمَنَهُ ، فَهُوَ يَنْتَظِرُ أَنْ تُمْطِرَ السَّمَاءُ ذَهَبًا أَوْ تَنْشَقَّ الأَرْضُ عَنْ كَنْزٍ !!! ، وَيْحَكَ انْهَضْ إِلَىٰ المَعَالِي

---

(١) « دِيْوَانُ عَبْد الله الخَفَاجِيّ » (٢٠٢) .
(٢) «دِيْوَانُ أَبِـي تَمَّام » (٨١) .

وَدَعْ «سَوْفَ» وَ «لَعَلَّ» لِأَهْلِهَا .

فَانْهَضْ إِذَا مَا لَمحْتَ الخَيْرَ فِي عَمَلٍ وَخَلِّ «سَوْفَ» لِعَزْمٍ خَامِلٍ وَاهِ

قَالَ بَدِيعُ الزَّمَانِ الهَمَذَانِي :

فَانْهَضْ إِلَىٰ المُلْكِ طَلَّابًا إِلَيْهِ يَدًا وَاتْلَعْ إِلَىٰ المَجْدِ طَلَّاعًا لَهُ عُنُقًا [(١)]

وَقَالَ البَارُودِيُّ -رَحِمَهُ اللّٰهُ- :

فَانْهَضْ إِلَىٰ صَهَوَاتِ المَجْدِ مُعْتَلِيًا فَالبَازُ لَمْ يَأْوِ إِلَّا عَالِيَ القُلَلِ

وَدَعْ مِنَ الأَمْرِ أَدْنَاهُ لِأَبْعَدِهِ فِي لُجَّةِ البَحْرِ مَا يُغْنِي عَنِ الوَشَلِ [(٢)]

١٠ ـ التَّرَدُّدُ :

إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيْمَةٍ فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ تَتَرَدَّدَا [(٣)]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

مِنْ أَسْبَابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ – أَخِي الكَرِيْمِ – التَّرَدُّدُ فِي اتِّخَاذِ أَيِّ قَرَارٍ ، وَالنَّاسُ يَنْقَسِمُونَ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ :

---

(١) « دِيْوَانُ بَدِيْعِ الزَّمَان » الهَمَذَانِـيّ (١٦٧) .
(٢) « دِيْوَانُ البَارُودِيِّ » (١) .
(٣) «زَهْرَةُ الأَدَابِ » (١/ ٢٥٧) .

١- شُجَاعٌ .

٢- جَبَانٌ .

فَالشُجَاعُ يُقْدِمُ عَلَىٰ ارْتِكَابِ المَخَاطِرِ ، وَالجَبَانُ يُحْجِمُ عَنْ مَا يَجِبُ الإِقْدَامُ عَلَيْهِ .

فَالشُجَاعُ يُمْدَحُ بِسَبَبِ أَنَّهُ اقْتَحَمَ الأَمْرَ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَمَتَىٰ كَانَ الأَمْرِ لَيْسَ بِوَاجِبٍ أَوْ عَوَاقِبُهُ وَخِيْمَةٌ لَكَانَ الاقْتِحَامُ تَهَوُّرًا .

وَأَمَّا الجَبَانُ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ حَسَبَ العَوَاقِبَ بِصُورَةٍ مُبَالغٍ فِيْهَا وَظَنَّ أَنَّهُ لَوْ أَقْدَمَ عَلَىٰ هَذَا الأَمْرِ فَإِنَّ العَوَاقِبَ وَخِيْمَةٌ فَامْتَنَعَ مِنَ الإِقْدَامِ عَلَيْهِ ، مَعَ أَنَّهُ لاَبُدَّ أَنْ يُقْدِمَ عَلَيْهِ فَذُمَّ بِذَلِكَ وَسُمِّيَ جَبَانًا .

وَصَفْوَةُ القَوْلِ أَنَّ الفِكْرَ لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُعْتَدلاً فَلاَ يَصِلَ إِلَىٰ حَدِّ التَّهَوُّرِ وَعَدَمِ النَّظَرِ فِي العَوَاقِبِ ، وَلاَ يَصِلَ بِالإِنْسَانِ إِلَىٰ شِدَّةِ الحِسَابِ فِي العَوَاقِبِ حَتَّىٰ يُحْجِمَ وَيَتَرَدَّدَ وَيُصْبِحَ لاَ يَدْرِي مَا وَجْهُ الصَّوَابِ بَعْدَ أَنْ كَانَ وَاضِحًا لَهُ .

قَالَ الشَّاعِرُ :

الجِـدُّ أَنْهَـضُ بِالفَتَىٰ مِنْ عَقْلِهِ ... فَانْهَضْ بِجَدٍّ فِي الحَوَادِثِ أَوْ ذَرِ

مَا أَقْرَبَ الأَشْيَاءَ حِيْنَ يَسُوقُهَا ... قَـدَرٌ ، وَأَبْعَدَهَا إِذَا لَمْ تُقْدَرِ

فَـإِذَا تَعَسَّرَتْ الأُمُـورُ فَأَرْجِهَا　　وَعَلَيْكَ بِالأَمْرِ الَّذِي لَمْ يَعْسُرِ (١)

وَيْحَكَ دَعْ التَّرَدُّدَ لِأَهْلِهِ ، وَلاَ تُضَيِّعْ نَفْسَكَ بِالشُّكُوكِ الَّتِي لاَ تَلِدُ إِلَّا الشُّكُوكَ ، وَاسْتَمِعْ إِلَىٰ قَوْلِ رَبِّكَ – جَلَّ جَلاَلُهُ– : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عِمْرَان : ١٥٩] .

وَقَوْلِهِ –سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ –: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ [مُحَمَّد :٢١] .

جَرِّدْ مِنَ العَزْمِ سَيْفًا تَسْتَعِيْنُ بِهِ　　إِنَّ التَّرَدُّدَ بَابُ الضَّعْفِ والكَسَلِ
وَالسَّعْيُ حَتَّىٰ وَإِنْ أَفْضَىٰ إِلَىٰ خَطَإٍ　　خَيْرٌ مِنَ الجُبْنِ وَالتَّشْكِيْكِ وَالوَجَلِ

١١ـ الغَفْلَةُ :

هَـــذِهِ الغَفْلَةُ نَــارٌ أُوْقِـــدَتْ　　فَاطْفِهَا بِالذِّكْرِ وَاسْبِقْ أَجَلَكْ (٢)

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

وَالغَفْلَةُ – أَخِي الكَرِيْم – وَمَا أَدْرَاكَ مَا الغَفْلَةُ ؟، الغَفْلَةُ هِيَ أَنْ يَغْفُلَ الإِنْسَانُ عَمَّا هُوَ كَائِنٌ وَحَادِثٌ وَحَاضِرٌ ، وَأَشَدُّ الغَفْلَةِ أَنْ يَغْفُلَ الإِنْسَانُ عَنِ الحَقَائِقِ الَّتِي عَلِمَهَا وَاسْتَقَرَّتْ فِي قَلْبِهِ فَهِيَ حِجَابٌ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ

(١) « الأَمَلُ وَالمَأْمُول» (٢) .
(٢) «دَوَاوِيْنُ الشِّعْرِ » (٧١/ ٢٥٧) .

رَبِّهِ، وَمَتَىٰ اسْتَحْكَمَتْ الغَفْلَةُ سَفُلَتْ الهِمَّةُ ، وَأَخْلَدَتْ بِصَاحِبِهَا إِلَىٰ الأَرْضِ، كَالعُصْفُورِ حِينَ يُوْلَدُ وَقَدْ تَخَلَّتْ عَنْهُ أُمُّهُ ، وَمَنْ كَانَ دَاؤُهُ الغَفْلَةُ فَشِفَاؤُهُ اليَقَظَةُ وَالتَّوْبَةُ وَالإِنَابَةُ وَالاسْتِعْدَادُ لِمَا لابُدَّ لَهُ مِنْهُ .

خَلِيْلِيَّ كَمْ مِنْ مَيِّتٍ قَدْ حَضَرْتُهُ ... وَلَكِنَّنِي لَمْ أَنْتَفِعْ بِحُضُورِي
وَكَمْ مِنْ لَيَالٍ قَدْ أَرَتْنِي عَجَائِبًا ... لَهُنَّ وَأَيَّامٍ خَلَتْ وَشُهُورِ
وَكَمْ مِنْ سِنِيْنَ قَدْ طَوَتْنِي كَثِيْرَةٍ ... وَكَمْ مِنْ أُمُورٍ قَدْ جَرَتْ وَأُمُورِ
وَمَنْ لَمْ يَزِدْهُ السِّنُّ مَا عَاشَ عِبْرَةً ... فَذَاكَ الَّذِي لاَ يَسْتَنِيْرُ بِنُورِ !! [(١)]

١٢ـ الفُتُورُ :

بِعَزْمِكَ لُذْ إِذَا عَزَّ النَّصِيْرُ ... وَلاَ يَعْبَثْ بِهِمَّتِكَ الفُتُورُ [(٢)]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

وَالفُتُورُ – أَخِي الكَرِيْم – وَمَا أَدْرَاكَ مَا الفُتُورُ ؟، الفُتُورُ هوَ الإِنْكِسَارُ وَالضَّعْفُ [(٣)]، وَعَرَّفَهُ ابْنُ حَجَرٍ بِأَنَّهُ المَلاَلُ واسْتِثْقَالُ الشَّيْءِ وَنُفُورُ النَّاسِ عَنْهُ بَعْدَ مَحَبَّتِهِ [(٤)].

---

(١) « مَـجْمُوعَةُ القَصَائِدِ الزُّهْدِيَّات» (١/ ٥٤٣) .
(٢) «دَوَاوِيْنُ الشِّعْرِ » (٨٨/ ٢٧) .
(٣) « مُخْتَارُ الصِّحَاحِ» مَادَة : فَتَرَ .
(٤) «فَتْحُ البَارِي» (١/ ١٢٦) .

فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرو -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَةً ، وَالشِّرَةُ إِلَىٰ فَتْرَةٍ ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ سُنَّتِي فَقَدْ اهْتَدَىٰ ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ ضَلَّ** »[1] .

والحَلُّ يَكْمُنُ فِي المُدَاوَمَةِ عَلَىٰ العَمَلِ الصَّالِحِ وَإِنْ قَلَّ ، وَالإقْتِصَادُ فِي السُّنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الاجْتِهَادِ فِي البِدْعَةِ .

قَالَ ابْنُ هَانِي الأَنْدَلُسِيُّ :

وَلَمْ أَجِدِ الإِنْسَانَ إِلَّا ابْنَ سَعْيِهِ ... فَمَنْ كَانَ أَسْعَىٰ كَانَ بِالمَجْدِ أَجْدَرَا
وَبِالهِمَّةِ العُلْيَا تَرَقَّىٰ إِلَىٰ العُلَا ... فَمَنْ كَانَ أَعْلَىٰ هِمَّةٍ كَانَ أَظْهَرَا[2]

١٣ـ الوَهْنُ :

لاَ يُدْرِكُ العِزَّ إِلَّا كُلُّ ذِي أَنَفٍ ... نَابَ عَنْ العَجْزِ شَرَّادٌ وَعَنْ الوَهَنِ[3]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

وَالوَهْنُ- أَخِي الكَرِيْم - وَمَا أَدْرَاكَ مَا الوَهْنُ ؟، الوَهْنُ هِوَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ ، وَهُوَ سَبَبٌ عَظِيْمٌ مِنْ أَسْبَابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ وَانْحِطَاطِهَا .

---

(١) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَد (٢/ ١٥٨) ،وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ- فِي (صَحِيْحِ الجَامِعِ) (٢١٥٢) .
(٢) « دِيْوَانُ ابْنِ هَانِـي » (١/ ١٣٩) .
(٣) «دَوَاوِيْنُ الشِّعْرِ » (٢٩/ ٢٧٨) .

فَعَنْ ثَوْبَانَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «**يُوْشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَىٰ عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَىٰ الأَكَلَةُ إِلَىٰ قَصْعَتِهَا**»، قَالُوا: أَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: «**لاَ، أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيْرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ الرَّهْبَةَ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الوَهَنَ**».

قَالُوا: وَمَا الوَهَنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟.

قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ**»[١].

وَحُبُّ الدُّنْيَا سَبَبُهُ تَخْرِيْبُ الآخِرَةِ، وَالإِنْسَانُ يَكْرَهُ الإِنْتِقَالَ مِنَ العُمْرَانِ إِلَىٰ الخَرَابِ.

كَمَا قِيْلَ:

حُبُّ السَّلاَمَةِ يُثْنِي عَزْمَ صَاحِبِهِ   عَنِ المَعَالِي وَيُغْرِي المَرْءَ بِالكَسَلِ[٢]

١٤ـ الانْشِغَالُ بِمَا لاَ يُعْنِي المَرْءِ:

نُفُوْرٌ عَنْ سَفَاسِفِ كُلِّ أَمْرٍ   وَعَنْ مَا لاَ يَلِيْقُ بِهِ شَرُوْدُ[٣]

---

(١) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَد (٥/ ٢٨٧)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ– فِي (الصَّحِيْحَةِ) (٩٥٨).

(٢) «الكَشْكُول» (٣٠٢)، وَ «دَوَاوِيْنُ الشِّعْرِ» (٩/ ٤١).

(٣) «دِيْوَانُ ابْنِ شِهَابٍ» (١١٠).

مِنْ أَسْبَابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ - أَخِي الكَرِيْم - الانْشِغَالُ بِسَفَاسِفِ الأُمُورِ ، وَسَفَاسِفُ الأُمُورِ هِيَ الأُمُورُ التَّافِهَةُ الَّتِي تُنْقِصُ مِنْ قَدْرِ مَنْ يَتَلَبَّسُ بِهَا مِنَ النَّاسِ ، وَهِيَ فِي أَصْلِ اسْتِعْمَالِهَا مَأْخُوذَةٌ مِنْ قَوْلِ العَرَبِ أَسَفَّ الطَّائِرُ، إِذَا دَنَا فِي طَيَرَانِهِ ، ثُمَّ اسْتُعِيْرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي كُلِّ دُنُوٍّ إِلَىٰ مَا يُنْكَرُ وَيُسْتَقْبَحُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ .

وَهِيَ هُنَا كَذَلِكَ ، وَهُوَ أَنْ تَقْتَصِرَ هِمَّةُ المَرْءِ وَشُغْلُهُ الشَّاغِلُ فِي مَظْهَرِهِ وَسِيَارَتِهِ ، وَمُتَابَعَةِ أَهْلِ الفَنِّ وَالرِّيَاضَةِ والجُلُوسِ فِي الطُّرُقَاتِ، وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ مِنَ السَّفَاسِفِ .

وَمَا لِلمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ ... إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقْطِ المَتَاعِ [١]

١٥ـ التَّرَفُ :

فَإِنَّ السَّعَادَةَ غَيْرُ الظُّهُورِ ... وَغَيْرُ الثَّرَاءِ وَغَيْرُ التَّرَفِ [٢]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

التَّرَفُ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ وَانْحِطَاطِهَا ، وَيُعَرَّفُ التَّرَفُ بِأَنَّهُ التَّوَسُّعُ فِي النِّعْمَةِ .

(١) « دِيْوَانُ صَفِيِّ الدِّيْنِ الحِلِّـيِّ » (٢٢) .
(٢) «دِيْوَانُ أَحْمَدْ شَوْقِيِّ » (١/ ٩١) .

وَالمُتْرَفُ مَنْ كَانَ مُنَعَّم البَدَنِ مُدَلَّلاً مُتوَسِّعًا في مَلاذِّ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا ، مُخَنَّثَ العَزْمِ مَائِعَ الإِرَادَةِ ، الدُّنْيَا عِنْدَهُ كَأْسٌ وَغَانِيَةٌ ، نَهَمُّ فِي طَلَبِ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا ، يَعِيْشُ لِنَفْسِهِ ، مَنْطِقَهُ « اليَوْمَ خَمْرٌ وَغَدًا أَمْرٌ » .

شِعَارُهُ «عِشْ الحَيَاةَ اليَوْمَ فَتَمَتَّعْ بِكُلِّ مَا فِيْهَا وَوَقْتُ اللهِ يُدَبِّرُهُ اللهُ » .

وَصَدَقَ القَائِلُ :

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا ... وَإِذَا تُرَدُّ إِلَىٰ قَلِيْلٍ تَقْنَعُ [١]

وَقَالَ الآخَرُ :

إِذَا المَرْءُ أَعْطَىٰ نَفْسَهُ كُلَّ مَا اشْتَهَتْ ... وَلَمْ يَنْهَهَا تَاقَتْ إِلَىٰ كُلِّ مَطْلَبٍ [٢]

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ بْنُ مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللّهُ- :

دَعْكَ مِنْ ذِكْرِكَ الغِنَىٰ كُلَّ حِيْنٍ ... رُبَّ فَقْرٍ يَكُونُ لِلمَرْءِ أَسْلَمْ

سَهَّلَ المَالُ لِلغَنِيِّ ذُنُوبًا ... هِيَ عِنْدَ الفَقِيْرِ حِلْمٌ مُحَرَّمْ

١٦ـ ضَيَاعُ الوَقْتِ :

اليَوْمُ أَصْبَحَ فِيْكَ الوَقْتُ مُنْتَظِمًا ... وَهَوَّنَ اللهُ أَمْرًا كَانَ قَدْ عَظُمَا [٣]

---

(١) «دِيْوَانُ المَعَانِـي » (١/ ١٢٠) .
(٢) «ذَمُّ النَّفْسِ والهَوَىٰ » لِوَهَبِيّ (٤٢) .
(٣) «دِيْوَانُ عَبْدُ الغَفَّار الأَخْرَس » (٣٣٤) .

مِنْ أَسْبَابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ -أَخِي الكَرِيْمِ- ضَيَاعُ الوَقْتِ، وَضَيَاعُ الوَقْتِ خَسَارَةٌ فِي الدُّنْيَا وَنَدَامَةٌ وَغُبْنٌ فِي الآخِرَةِ،وَكَمْ مِنْ هِمَّةٍ سَقَطَتْ وَهَوَتْ بِسَبَبِ ضَيَاعُ الوَقْتِ وَالاسْتِخْفَافِ بِهِ،وَمَنْ ضَيَّعَ وَقْتَهُ فَإِنَّمَا ضَيَّعَ نَفْسَهُ، وَالنَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَحُثُّنَا عَلَىٰ اغْتِنَامِ الأَوْقَاتِ فَيَقُولُ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: « **اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ،وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ،وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ** »[1].

وَيُذَكِّرُنَا -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِنِعْمَةِ الفَرَاغِ فِي مَقَامِ الحَثِّ عَلَىٰ اغْتِنَامِهَا فَيَقُولُ:«**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ:الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**»[2].

وَمَا أَسْهَلَ أَنْ تَضِيْعَ عَلَيْنَا أَوْقَاتُنَا فَنُهْدِرَهَا فِي الزِّيَارَاتِ ، وَالسَّمَرِ وَفُضُوْلِ المُبَاحَاتِ فَتَنْحَطَّ الهِمَّةُ وَتَضْعُفَ العَزِيْمَةُ .

فَعَلَيْنَا أَنْ نَنْظُرَ كَيْفَ كَانَ حِرْصُ السَّلَفِ عَلَىٰ الوَقْتِ يُحَدِّثُنَا الحَسَنُ البَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فَيَقُولُ : « أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا كَانُوا عَلَىٰ أَوْقَاتِهِمْ أَشَدَّ مِنْكُمْ عَلَىٰ دَرَاهِمِكُمْ وَدَنَانِيْرِكُمْ »[3].

وكَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ ضَيَاعَ الوَقْتِ أَوْ ذَهَابَ بَرَكَتِهِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الذُّنُوبِ .

(١) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ الحَاكِمِ (٧٨٤٦) ،وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي (صَحِيْحِ الجَامِعِ) (١٠٧٧) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- .

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٠٤٩) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- .

(٣) «أَهَمِّيَّةُ الوَقْتِ » (١١٩) .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللّه- :

« مِنْ عَلاَمَاتِ صِحَّةِ القَلْبِ أَنْ يَكُونَ أَشَحَّ بِوَقْتِهِ مِنَ البَخِيْلِ بِمَالِهِ»[1].

وَيَقُولُ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي مَوْضِعِ آخَرَ : « ضَيَاعُ الوَقْتِ أَشَدُّ مِنَ المَوْتِ؛ لِأَنَّ المَوْتَ يَقْطَعُكَ عَنِ الدُّنْيَا ، وَأَمَّا ضَيَاعُ الوَقْتِ فَيَقْطَعُكَ عَنِ اللهِ وَالدَّارِ الآخِرَةِ » [2].

وَمَا الوَقْتُ إِلَّا طَائِرٌ يَأْخُذُ المَدَى فَبَادِرْهُ إِذْ كُلُّ النُّهَىٰ فِي بِدَارِهِ [3]

وَأَمَّا ابْنُ الجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- فَيَضَعُ يَدَهُ عَلَىٰ الدَّاءِ ثُمَّ يَصِفُ الدَّوَاءَ فَيَقُولُ : «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ صُحْبَةِ البَطَّالِيْنَ ، لَقَدْ رَأَيْتُ خَلْقًا كَثِيْرًا يَجْرُونَ مَعِي فِيمَا اعْتَادَهُ النَّاسُ مِنْ كَثْرَةِ الزِّيَارَةِ ، وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ التَّرَدُّدَ خِدْمَةً وَيَطْلُبُونَ الجُلُوسَ وَيُجْرُونَ فِيْهِ أَحَادِيْثَ النَّاسِ وَمَا لا يَعْنِي وَمَا يَتَخَلَّلُهُ مِنْ غَيْبَةٍ .

وَهَذَا شَيْءٌ يَفْعَلُهُ فِي زَمَانِنَا كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَرُبَّمَا طَلَبَهُ المَزُوْرُ ، وَتَشَوَّقَ إِلَيْهِ ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الوَحْدَةِ ، وَخُصُوصًا فِي أَيَّامِ التَّهَانِي والأَعْيَادِ ، فَتَرَاهُمْ يَمْشِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَلاَ يَقْتَصِرُونَ عَلَىٰ الهَنَاءِ وَالسَّلَام ، بَلْ يَمْزَجُونَ ذَلِكَ بِمَا ذَكَرْتُهُ مِنَ تَضْيِيعِ الزَّمَانِ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّ الزَّمَانَ أَشْرَفُ شَيْءٍ،

(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ » (١/ ٧١) .
(٢) «الفَوَائِدُ » (٣١) .
(٣) «دِيْوَانُ أَبِـي العَلَاء المَعَري » (٥٥٢) .

وَالوَاجِبَ انْتِهَاؤهُ بِفِعْلِ الخَيْرِ، كَرِهْتُ ذَلِكَ وَبَقِيْتُ مَعَهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ:

١- إِنْ أَنْكَرْتُ عَلَيْهِمْ وَقَعَتْ وَحْشَةٌ لِمَوْضِعِ قَطْعِ المَأْلُوفِ .

٢- وَإِنْ تَقَبَّلْتُهُ مِنْهُمْ ضَاعَ الزَّمَانُ .

فَصِرْتُ أُدَافِعُ اللِّقَاءَ جَهْدِي ؛ فَإِذَا غَلَبَ قَصَّرْتُ فِي الكَلَامِ لِأَتَعَجَّلَ الفِرَاقُ ، ثُمَّ أَعْدَدْتُ أَعْمَالاً تَمْنَعُ مِنَ المُحَادَثَةِ لِأَوْقَاتِ لِقَائِهِمْ لِئَلَّا يَمْضِي الزَّمَانُ فَارِغًا .

فَجَعَلْتُ أَسْتَعِدُّ لِلِقَائِهِمْ قَطْعَ الكَاغِدِ[1]، وَبَرْيَ الأَقْلَامِ، وَحَزْمَ الدَّفَاتِرِ، فَإِنَّ هَذِهِ الأَشْيَاءَ لَابُدَّ مِنْهَا ، وَلَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ فِكْرٍ وَحُضُورِ قَلْبٍ فَأَرْصَدْتُهَا لِأَوْقَاتِ زِيَارَتِهِمْ لِئَلَّا يَضِيعَ شَيْءٌ مِنْ وَقْتِي ، نَسْأَلُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ يُعَرِّفَنَا شَرَفَ الوَقْتِ وَأَنْ يُوَفِّقَنَا لاغْتِنَامِهِ ، وَلَقَدْ شَاهَدْتُ خَلْقًا كَثِيرًا لَا يَعْرِفُونَ مَعْنَىٰ الحَيَاةِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَغْنَاهُ اللهُ عَنْ التَّكَسُّبِ بِكَثْرَةِ مَالِهِ ، فَهُوَ يَقْعُدُ فِي السُّوْقِ أَكْثَرَ النَّهَارَ يَنْظُرُ إِلَىٰ النَّاسِ ، وَكَمْ تَمُرُّ بِهِ مِنْ آفَةٍ وَمُنْكَرٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْلُو بِلَعِبِ الشَّطَرَنْجِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُ الزَّمَانَ بِكَثْرَةِ الحَدِيْثِ عَنْ السَّلَاطِيْنِ ، وَالغَلَاءِ وَالرُّخْصِ[2] إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ ، فَعَلِمْتُ أَنَّ اللهَ -تَعَالَى- لَمْ يَطْلِعْ عَلَىٰ شَرَفِ العُمْرِ وَمَعْرِفَةِ قَدْرِ أَوْقَاتِ العَافِيَةِ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ وَأَلْهَمَهُ اغْتِنَامَ ذَلِكَ .

(١) الكَاغِد : القِرْطَاسُ .
(٢) الرُّخْص : الشَّيْءُ الزَّهِيْد .

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فُصِّلَتْ :٣٥] . (١)

مَضَىٰ أَمْسُكَ المَاضِي شَهِيدًا مُعَدَّلاً وَأَصْبَحْتَ فِي يَوْمٍ عَلَيْكَ شَهِيدُ
فَإِنْ كُنْتَ بِالأَمْسِ اقْتَرَفْتَ إِسَاءَةً(٢) فَثَنِّ بِإِحْسَانٍ وَأَنْتَ حَمِيْدُ
وَلاَ تُرْجِ (٣) فِعْلَ الخَيْرِ يَوْمًا إِلَىٰ غَدٍ لَعَلَّ غَدًا يَأْتِي وَأَنْتَ فَقِيْدُ
فَيَوْمُكَ إِنْ أَعْتَبْتَهُ (٤) عَادَ نَفْعُهُ عَلَيْكَ وَمَاضِي الأَمْسِ لَيْسَ يَعُودُ

١٧ـ الرِّضَى بِالدُّوْنِ :

كَمَا عَلَتْ هِمَّتِي صَيَّرْتُهَا وَطَنِي وَلَيْسَ يَقْنَعُ غَيْرُ الدُّوْنِ بِالدُّوْنِ (٥)

مِنْ أَسْبَابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ وَسُقُوطِهَا -أَخِي الكَرِيْمِ- الرِّضَىٰ بِالدُّوْنِ ، قَالَ عُمَرُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- : « لاَ تَصْغُرَنَّ هِمَّتَكَ ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ أَقْعَدَ بِالرَّجُلِ مِنْ سُقُوطِ هِمَّتِهِ » (٦).

وَقَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- : « مِنْ عَلاَمَةِ كَمَالِ العَقْلِ عُلُوُّ الهِمَّةِ

---

(١) الرُّخْص : الشَّيْءُ الزَّهِيْد .
(٢) اقْتَرَفْتَ إِسَاءَةً : اكْتَسَبْتَهَا .
(٣) أَرْجىٰ الأَمْر : أَخَرَهُ لُغَةٌ فِي أَرْجَأَهُ يُهْمَزُ وَلَا يُهْمَزُ .
(٤) أَعْتَبْتَهُ : أَعْطَيْتَهُ العُتْبَىٰ : وَهِيَ الرُّجُوع عَنْ الإِسَاءَةِ .
(٥) «دِيْوَانُ عِمَادِ الدِّيْنِ الأَصْبَهَانِي » (٤٣٩) .
(٦) مَوْسُوعَةُ البَحْثِ « سُكَّانُ القِمَمِ » (٤) .

وَالرَّاضِيْ بِالدُّوْنِ دَنِيٌّ » [١].

وَقَالَ -رَحِمَهُ اللهُ- : « قَالَ الكَلْبُ لِلأَسَدِ يَوْمًا : يَا سَيِّدَ السِّبَاعِ، غَيِّرْ اسْمِي فَإِنَّهُ قَبِيْحٌ ، فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ خَائِنٌ لاَ يَصْلُحُ لَك غَيْرُ هَذَا الاسْم ، قَالَ: جَرِّبْنِي ، فَأَعْطَاهُ قِطْعَةَ لَحم ، وَقَالَ لَهُ : احْفَظْ هَذِه إِلَىٰ الغَدِ وَأَنا أُغَيِّرُ اسْمَكَ ، أَخَذَ الكَلْبُ قِطْعَةَ اللَّحْمِ ، وَبَعْدَ زَمَنٍ جَعَلَ الكَلْبُ يَنْظُرُ إِلَىٰ اللَّحْمِ وَيَصْبِرُ ، فَلَمَّا غَلَبَتْهُ نَفْسُهُ قَالَ : وَأَيُّ شَيْءٍ فِي اسْمِي ، وَمَا كَلْبٌ إِلَّا اسْمٌ حَسَنٌ ، وَأَكَلَ اللَّحْمَ .

يَقُولُ ابْنُ الجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ اللّهُ- :

وَهَكَذَا حَالُ خَسِيْسِ الهِمَّةِ القَنُوعِ بِأَقَلِّ المَنَازِلِ ، المُخْتَارِ لِعَاجِلِ الهَوَىٰ عَلَىٰ آجِلِ الفَضَائِلِ ، فَاللهَ اللهَ فِي حَرِيْقِ الهَوَىٰ إِذا ثَارَ ، فَانْظُرْ كَيْفَ تُطْفِئُهُ » .

وَقَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللّهُ- :

« نُزُوْلُ هِمَّةِ الكَسَّاحِ [٢] ، دَلَّاهُ فِي جُبِّ العَذِرَةِ » [٣] .

(١) « صَيْدُ الخَاطِرِ » (١/ ٣٩) .

(٢) الكَسَّاح : هُوَ الَّذِي يُزِيْلُ الأَوسَاخَ ، وَيَكْنُسُ الطُّرُقَات ، وَقَوْلُهُ : دَلَّاهُ : يَعْنِي أَنْزَلَهُ ، وَالمَعْنَىٰ أَنَّ هَذَا الكَسَّاحِ لَمَّا دَنَتْ هِمَّتُهُ وَصَلَ إِلَىٰ دَرْكٍ مِنَ السُّقُوطِ قَبِيحٍ حَيْثُ نَزَلَ إِلَىٰ مُسْتَنْقَعِ الأَقْذَارِ » .

(٣) « الفَوَائِدُ » (٧٧) .

وَلِلّهِ دَرُّ الشَّوْكَانِيِّ حِيْنَ قَالَ :

قَــبَّــحَ اللهُ هِمَّـــةً تَـتَـسَـامَـى ... عَنْ كِبَارِ الأَقْـدَارِ دُوْنَ الصِّغَارِ

هِيَ أَهْـلٌ لِمَا عَرَاهَا مِنَ الذُّلْـ ... ـلِ وَمَا مَسَّهَا مِنَ الاحْتِقَارِ [(١)]

وَقَالَ الآخَرُ :

بِهِمَّتِكَ الطُّوْلَىٰ بَلَغْتَ إِلَىٰ المُنَى ... وَذُو الهِمَّةِ القُصْوَىٰ يَرُوْحُ كَمَا يَغْدُو [(٢)]

وَذَمَّ أَعْرَابِيٌّ رَجُلاً فَقَالَ :

« هُوَ عَبْدُ البَدَنِ ، حُرُّ الثِّيَابِ ، عَظِيْمُ الرَّوَاقِ ، صَغِيْرُ الأَخْلَاقِ ، الدَّهْرُ يَرْفَعُهُ ، وَهِمَّتُهُ تَضَعُهُ » [(٣)] .

وَقَالَ شَاعِرُ بَنِي عَامِرٍ :

إِذَا لَمْ يَـكُـنْ لِـلـفَـتَـىٰ هِمَّـةٌ ... تُـبَـوِّئُـهُ فِي الـعُـلَا مَـصْـعَـدَا

وَنَـفْـسٌ يُـعَـوِّدُهَـا المَكرُمَاتِ ... وَالمَـــرْءُ يَـلْـزَمُ مَـا عُـــوِّدَا

وَلَمْ تَـعْـدُ هِمَّـتُـهُ نَـفْـسَـهُ ... فَلَيْسَ يَنَالُ بِهَا الـسُّـؤْدُدَا [(٤)]

---

(١) «دِيْوَانُ الشَّوْكَانِـيّ » (١٩٥) .

(٢) «دِيْوَانُ ابْنِ حَيوس » (٣٨٦) .

(٣) «السِّيَـرُ » (١٠/ ٥٦٣-٥٦٤) .

(٤) «مُـحَاضَرَةُ الأَدَبَاءِ» (١/ ٤٤٧) .

١٨ـ اليَأْسُ :

وَمَنْ لاَ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لاَ يَظْلِمْ (اليَأْسَ) يُظْلَمِ[١]

اليَأْسُ -أَخِي الكَرِيْم- مِنْ أَعْظَم أَسْبَاب دُنُوِّ الهِمَّةِ ، وَحَاشَا لِقَلْبٍ مَوْصُولٍ بِاللهِ أَنْ يَتَسَرَّبَ إِلَيْهِ اليَأْسُ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ قُلُوبًا مُنْقَطِعَةَ الصِّلَةِ بِاللهِ.

وَأَقْبَحُ اليَأْسِ اليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ وَأَرْدَؤُهُ اليَأْسُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَأَحْمَدُهُ اليَأْسُ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ .

وَحَدِيْثُنَا هُوَ حَوْلَ اليَأْسِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ يَعُودُ عَلَىٰ الإِنْسَانِ فِي مَعَاشِهِ أَوْ مَعَادِهِ فَلاَ يَيْأَسُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا دَنِيُّ الهِمَّةِ وَضِيْعٌ ، وَمَا هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ أَهْلُ العَزَائِمِ .

وَمِنْ دُرَرِ العَلَّامَةِ ابْنِ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- قَوْلُهُ :

« وَطَالِبُ النُّفُوذِ إِلَىٰ اللهِ وَالدَّارِ الآخِرَةِ ، بَلْ إِلَىٰ كُلِّ عِلْمٍ وَصِنَاعَةٍ وَرِئَاسَةٍ بِحَيْثُ يَكُونُ رَأْسًا فِي ذَلِكَ ، مُقْتَدَىً بِهِ فِيْهِ ، يَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ شُجَاعًا مِقْدَامًا حَاكِمًا عَلَىٰ وَهْمِهِ ، غَيْرَ مَقْهُورٍ تَحْتَ سُلْطَانِ تَخَيُّلِهِ ، زَاهِدًا فِي كُلِّ مَا سِوَىٰ مَطْلُوبِهِ ، عَاشِقًا لِمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ ، عَارِفًا بِطَرِيْقِ الوُصُولِ إِلَيْهِ، وَالطُّرُقِ القَوَاطِعِ عَنْهُ ، مِقْدَامَ الهِمَّةِ ، ثَابِتَ الجَأْشِ ، لاَ يُثْنِيْهِ عَنْ مَطْلُوبِهِ لَوْمُ لاَئِمٍ، وَلَا عَذْلُ عَاذِلٍ ، كَثِيْرَ السُّكُونِ ، دَائِمَ الفِكْرِ ، غَيْرَ مَائِلٍ مَعَ لَذَّةِ المَدْحِ، وَلَا

(١) « شَـرْحُ المُعَلَّقَاتِ » (٢١١) .

أَلَمِ الذَّمِّ ، قَائِمًا بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ مَعُونَتِهِ ، لاَ تَسْتَفِزُّهُ المُعَارَضَاتُ، شِعَارُهُ الصَّبْرُ وَرَاحَتُهُ التَّعَبُ » [١].

وَلِلّه دَرُّ القَائِلِ :

عَجِبْتُ لَهُمْ قَالُوا : تَمَادَيْتَ فِي المُنَى ... وَفِي المُثُلِ العُلْيَا وَفِي المُرْتَقَىٰ الصَّعْبِ
فَقُلْتُ لَهُمْ : مَهْلاً ؛ فَمَا اليَأْسُ شِيْمَتِي ... سَأَبْذِرُ حَبِّيْ وَالثِّمَارُ مِنَ الرَّبِّ

١٩ــ التَّقْصِيْرُ فِي العِبَادَةِ :

حَلِيْفُ التُّقَىٰ مَا انْفَكَّ لِلّهِ شَاكِرًا ... وَلِلنَّوْمِ مِنْ حُبِّ العِبَادَةِ هَاجِرَا [٢]

مِنْ أَسْبَابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ -أَخِي الكَرِيْمِ- الكَسَلُ فِي العِبَادَةِ وَالتَّقْصِيْرُ فِيْهَا ، وَأَنْ يَرْضَىٰ المَرْءُ بِأَقَلِّ المَنَازِلِ ، يُصَلِّي فِي البَيْتِ وَإِنْ صَلَّىٰ فِي المَسْجِدِ فَيَضِيْقُ وَيَتَبَرَّمُ مِنْ تَطْوِيْلِ الإِمَامِ وَمِنْ تَأْخِيْرِ الإِقَامَةِ ، وَيَوَدُّ لَوْ يُسَافِرُ فَتُخَفَّفُ عَنْهُ الصَّلاَةُ أَوْ الصَّوْمُ وَيَتَمَنَّىٰ لَوْ كَانَتْ هُنَاكَ أَمْطَارٌ فَيَجْمَعَ الإِمَامُ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالعَصْرِ أَوْ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ وَيَتَهَاوَنُ فِي السُّنَنِ الَّتِي هِيَ سِيَاجُ الفَرِيْضَةِ ، وَكُلُّ خَدْشٍ فِيْهَا سَيَصِلُ إِلَىٰ الفَرْضِ ، وَلِذَلِكَ مَثَّلَ العُلَمَاءُ لِلنَّافِلَةِ -سِيَّمَا الرَّوَاتِبِ لِلصَّلَوَاتِ- بِأَنَّهَا كَلِحَاءِ العُودِ ، وَإِذَا نُزِعَ اللِّحَاءُ يَبِسَ العُوْدُ، وَالَّذِيْنَ يُقَصِّرُونَ فِي عِبَادَةِ اللهِ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَوْلِيَائِهِ؛ لأَنَّ أَوْلِيَاءَهُ

(١) « الفَوَائِدُ » (١٩) .
(٢) « دِيْوَانُ حَيْدَر بْن سُلَيْمَان الحلّي » (٤١٨) .

هُمُ الَّذِيْنَ يَأْنَسُونَ بِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- فَلاَ يَحْزَنُونَ عِنْدَمَا يَحْزَنُ النَّاسُ وَيَتَلَذَّذُونَ بِالعِبَادَةِ وَيَسْتَرِيْحُونَ لَهَا وَهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَشَدُّ تَلَذُّذًا ، فَعِبَادَتُهُمْ لِلهِ جَنَّةٌ عَاجِلَةٌ .

بِهَالَيْلُ أَفْنَوا فِي العِبَادَةِ أَنْفُسًا لَهُمْ أَثَرٌ فِي الصَّالِحَاتِ أَثِيْرُ (١)

٢٠ـ الانْشِغَالُ بِمَا لاَ يُعْنِي المَرْءِ :

إِنِّي لأَنْظُرُ فِيْمَا كَانَ مِنْ أَرَبِي وَأُكْثِرُ الصَّمْتَ فِيْمَا لَيْسَ يَعْنِيْنِي (٢)

وَمِنْ أَسْبَابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ -أَخِي الكَرِيْمِ- انْشِغَالُ المَرْءِ بِمَا لاَ يَعْنِيْهِ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ ، وَأَيَّ فَائِدَةٍ يَجْنِيْهَا المَرْءُ مِنْ انْشِغَالِهِ بِمَا لاَ يَعْنِيْهِ .

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيْهِ** » (٣).

فَيُسْتَفَادُ مِنَ الحَدِيْثِ مَا يَأْتِي :

١ - أَنَّ مِنْ قُبْحِ إِسْلاَمِ المَرْءِ أَخْذَهُ فِيْمَا لاَ يَعْنِيْهِ ، وَهُوَ الفُضُولُ كُلُّهُ عَلَىٰ اخْتِلاَفِ أَنْوَاعِهِ ، فَإِنَّ مُعَانَاتِهِ ضَيَاعٌ لِلوَقْتِ النَّفِيْسِ الَّذِي لاَ يُمْكِنُ أَنْ

(١) «دَوَاوِيْنُ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ » (٥٩/ ٣٢٢) .
(٢) « دِيْوَانُ عُرْوَةَ بْنِ أُذَنِيَةَ » (١٠٦) .
(٣) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِي(٢٣١٧) ،وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ الجَامِعِ» (٥٩١١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

يُعَوِّضَ فَائِتَهُ فِيْمَا لَمْ يُخْلَقْ لأَجْلِهِ .

٢- الحَثُّ عَلَىٰ الاشْتِغَالِ بِمَا يَعْنِي ، وَهُوَ مَا يَفُوْزُ بِهِ المَرْءِ فِي مَعَادِهِ مِنَ الإِسْلاَمِ وَالإِيْمَانِ وَالإِحْسَانِ ، وَمَا يَتَعَلَّق بِضَرُورَةِ حَيَاتِهِ فِي مَعَاشِهِ فَإِنَّ المُشْتَغِلَ بِهَذَا يَسْلَمُ مِنَ المُخَاصَمَاتِ وَجَمِيْعِ الشُّرُور »[1] .

وَمِنَ الأُمُورِ الَّتِي لاَ تَعْنِي المَرْءِ وَلاَ تَعُودُ عَلَيْهِ إِلَّا بِدُنُوِّ الهِمَّةِ وَسُقُوطِهَا سَمَاعُ البَاطِلِ مِنَ الغِنَاءِ وَقِرَاءَةِ الرِّوَايَةِ الهَابِطَةِ ، وَمُشَاهَدَةَ المُسَلْسَلاَتِ الَّتِي تُشَجِّعُ عَلَىٰ الرَّذِيْلَةِ وَتُهَوِّنُ مِنْ شَأْنِ القِيَمِ وَتُحَرِّضُ عَلَىٰ التَّمَرُّدِ عَلَىٰ الآدَابِ، وَتَقْضِي عَلَىٰ الخَيْرِ فِي الشَّخْصِيَّةِ السَّوِيَّةِ ، وَيَجْعَلُ مِنْهَا شَخْصِيَّةً تَجْرِي وَرَاءَ مَلَذَّاتِهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ لأَيِّ فَضِيْلَةٍ[2] .

٢١- الدُّيُون :

دِيْـونٌ أَخَافَتْنِي وَبَثَّتْ عَلاَئِقِي   مِنَ النَّاسِ حَتَّىٰ كِدْتُ أَفْزَعُ مِنْ ظِلِّي[3]

وَمِنْ أَسْبَابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ -أَخِي الكَرِيْم- كَثْرَةُ الدُّيُونِ الَّتِي أُضِيْفَتْ عَلَىٰ الفَقْرِ فَلاَ يَتَزَوَّجُ المَرْءِ إِلَّا بِجِبَالٍ مِنَ الدُّيُونِ ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ السَّكَنُ وَإِيْجَارُهُ أَوْ تَكَالِيْفُهُ ، وَإِنْ ابْتُلِي بِامْرَأَةٍ تُحَمِّلُهُ دَائِمًا سَيَّارَةً فَاخِرَةً وَتُكَلِّفُهُ أَنْ يُغَيِّرَ ذَهَبَهَا كُلَّ سَنَةٍ وَأَثَاثَ وَكَنَبَ البَيْتِ وَالمَطْبَخِ ، فَيَتَحَمَّلُ دُيُونًا لِلنَّاسِ

(١) « التُّحْفَةُ الرَّبَانِيَّة شَـرحِ الأَرْبَعِيْـن النَّوَوِيَّة » لِلأَنْصَارِيِّ (١٣) .
(٢) انْظُرْ : « الإِنْسَانُ بَيْـنَ عُلُوِّ الهِمَّةِ وَهُبُوطِهَا» (٣٨٨) .
(٣) « دِيْوَانُ الهَبَل » (٢٢٩) .

وَرَاتِبُهُ لاَ يُغَطِّي نَفَقَاتِهِ فَتُصْبِحُ هِمَّتُهُ شَذَرَ مَذَرَ بَيْنَ المَاءِ والهَوَاءِ .

فَعَلَىٰ المَرْءِ أَنْ يَكُونَ حَازِمًا فَلَا يَسْتَدِيْنَ إِلَّا لِمَا لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَمَا هُوَ مَضْطَرٌّ إِلَيْهِ وَغَلَبَ عَلَىٰ ظَنِّهِ سَدَادُهُ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ ، واللهُ المُوَفِّقُ .

٢٢- العِشْقُ :

أَوَّلُ العِشْقِ مِزَاحٌ وَوَلَعْ ... ثُمَّ يَزْدَادُ إِذَا ازْدَادَ الطَّمَعْ (١)

وَمِنْ أَسْبَابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ -أَخِي الكَرِيْم- العِشْقُ ، وَالعِشْقُ هُوَ الإِفْرَاطُ فِي المَحَبَّةِ وَمَنَاخُهُ الاخْتِلَاطُ وَظُهُورُ الآلَاتِ الحَدِيْثَةِ كَالتِّلْفَازِ وَالإِنْتَرْنِتْ وَنَحْوِهِمَا ، وَصَاحِبُهُ يَحْسَرُ هِمَّتُهُ عَلَىٰ حُصُولِ مَعْشُوقِهِ فَيُلْهِيْهِ عَنْ حُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَبَرِيْدُهُ النَّظَرُ المُحَرَّمُ وَالتَّعَلُّقُ بِالصُّوَرِ ، وَذَلِكَ يُوْجِبُ فَسَادَ العَقْلِ وَعَمَىٰ البَصِيْرَةِ وَسُكْرَ القَلْبِ ، كَمَا قِيْلَ :

سُكْرَانِ : سُكْرُ هَوَىً وَسُكْرُ مُدَامَةٍ ... وَمَتَىٰ إِفَاقَةُ مَنْ بِهِ سُكْرَانِ

وَقَالَ آخَرُ :

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَىٰ فَقُلْتُ لَهُمْ ... العِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالمَجَانِيْنِ

العِشْقُ لاَ يَسْتَفِيْقَ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ ... وَإِنَّمَا يُصْرَعُ المَجْنُونُ فِي الحِيْنِ (٢)

---

(١) « مِنْ رَحِيْقِ الشِّعْرِ » (١٧١) .

(٢) « الدَّاءُ وَالدَّوَاء » (٤١٨) .

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْم بْن مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللّهُ-:

أَلْهَىٰ فُـؤَادِي عَنْ سِـوَاكَ مَحَبَّتِي ... وَتَرَكْتَ عَقْلِي فِي هَـوَاكَ أَسِـيْرَا

أَطْلِقْ سَرَاحِي إِنَّنِي أَصْبَحْتُ مِنْ ... فَـرْطِ الهَـوَىٰ عَمَّا سِـوَاكَ ضَرِيْـرَا

وَمَنْ تَرَكَ العِشْقَ وَقَطَعَ أَسْبَابَهُ الَّتِي تَمُدُّهُ، وَتَجَرَّعَ غُصَصَ الهَجْرِ، وَنَارَ البُعَادِ فِي بِدَايَةِ أَمْرِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ اللهِ بِكُلِّيَتِهِ؛ رُزِقَ السُّلُوَّ وَعِزَّةَ النَّفْسِ، وَسَلِمَ مِنَ اللَّوْعَةِ والذِّلَةِ وَالأَسْرِ، وَمُلِئَ قَلْبُهُ حُرِّيَّةً وَمَحَبَّةً للهِ -عَزَّ وَجَلَّ- تِلْكَ المَحَبَّةُ الَّتِي تَلُمُّ شَعْثَ القَلْبِ، وَتَسُدُّ خِلَّتَهُ، وَتُشْبِعُ جَوْعَتَهُ، وَتُغْنِيْهِ مِنْ فَقْرِهِ؛ فَالقَلْبُ لاَ يُسَرُّ وَلاَ يُفْلِحُ، وَلاَ يَطِيْبُ وَلاَ يَسْكُنُ، وَلاَ يَطْمَئِنُّ إِلَّا بِعِبَادَةِ رَبِّهِ، وَحُبِّهِ وَالإِنَابَةِ إِلَيْهِ» [١].

وَقَدْ كَانَ يَسْبِي القَلْبَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ ... ثَمَانُونَ بَلْ تِسْعُونَ نَفْسًا وَأَرْجَحُ

يَهِـيْـمُ بِهَـــذَا ثُـمَّ يَـأْلَـفُ غَـيْرَهُ ... وَيَسْلُوْهُمُ مِنْ فَوْرِهِ حِيْنَ يُصْبِحُ

وَقَدْ كَانَ قَلْبِي ضَائِعًا قَبْلَ حُبِّكُمْ ... فَكَانَ بِحُبِّ الخَلْقِ يَلْهُوْ وَيَمْرَحُ

فَلَمَّا دَعَـا قَلْبِي هَـوَاكَ أَجَابَهُ ... فَلَسْتُ أَرَاهُ عَنْ خِبَائِكَ يَبْرَحُ [٢]

---

(١) «الطَّرِيْقُ إِلَـىٰ الجَنَّةِ» (١٤٢).

(٢) «عُقَلاَءُ المَجَانِيْـن» لابْنِ حَبِيْب النِّيسَابُورِيِّ (١٠٤).

البَابُ الثَّالِثُ
أَسْبَابُ عُلُوِّ الهِمَّةِ

* الإِخْلَاصُ .
* سَلَامَةُ العَقِيْدَةِ .
* قُوَّةُ الإِيْمَانُ بِاللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- .
* التَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ .
* العِلْمُ .
* الصَّبْرُ .
* الصِّدْقُ .
* القِرَاءَةُ فِي السِّيْرَةِ .
* صُحْبَةُ الأَخْيَارِ .
* التَّحوُّلُ عَنْ البِيْئَةِ المُثَبِّطَةِ .
* عَدَمُ الاسْتِمَاعِ لِلمُثَبِّطِيْنَ .
* التَّفَاؤُلُ .

* البُعْدُ عَنْ سَفَاسِفِ الأُمُور .

* مَعْرِفَةُ قِيْمَةِ النَّفْسِ وَشَرَفِهَا .

* اليَقَظَةُ وَالمُسَارَعَةُ .

* التَّشْجِيْعُ .

* انْتِهَازُ الفُرَصِ .

* الشَّجَاعَةِ .

* الدِّقَةُ فِي المَوَاعِيْدِ .

* المُجَاهَدَةُ .

* المُبَادَرَةُ .

* التَّرْبِيَةُ مُنْذُ الصِّغَرِ .



أَسْبَابُ عُلُوِّ الهِمَّةِ



لِعُلُوِّ الهِمَّةِ -أَخِي الكَرِيْم- أَسْبَابٌ مَتَىٰ أَخَذَ بِهَا العَبْدُ عَلَتْ هِمَّتُهُ وَارْتَقَتْ نَفْسُهُ ، فَمِنْ تِلْكَ الأَسْبَابِ :

١ ـ الإِخْلَاصُ :

يَنْضَحُ الإِخْلَاصُ مِنْ أَعْطَافِهِمْ ... عَبَقَ المَجْدِ وَلَأْلَاءَ الخِصَالِ [١]

الإِخْلَاصُ سَبَبٌ عَظِيْمٌ مِنْ أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّةِ وَالحَدِيْثُ عَنْهُ ذُو شُجُونٍ، فَنِسْيَانُ رُؤْيَةِ المَخْلُوقِيْنَ بِدَوَامِ النَّظَرِ فِي الخَالِقِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يُحُثُّ عَلَىٰ الأَخْذِ بِمَعَالِي الأُمُورِ ؛ لِأَنَّ النَّاقِدَ بَصِيْرٌ .

يَقُولُ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللّٰهُ- :

« لِقَاحُ الهِمَّةِ العَالِيَةِ: النِّيَّةُ الصَّالِحَةُ، فَإِذَا اجْتَمِعَا بَلَغَ العَبْدُ غَايَةَ المُرَادِ »[٢].

٢ ـ سَلَامَةُ العَقِيْدَةِ :

فَأَنَا مَعَ الأَسْلَافِ أَقْفُو نَهْجَهُمْ ... وَعَلَىٰ الكِتَابِ عَقِيْدَتِي وَتَعَبُّدِي [٣]

---

(١) « المَذَاهِبُ الأَدَبِيَّةِ » (١٦٧) .

(٢) « الفَوَائِدُ » لابْنِ القَيِّمِ (٣٠٠) .

(٣) « مَوْسُوعَةُ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ » (٤١١) .

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

سَلَامَةُ العَقِيْدَةِ مِنْ أَعْظَم أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّةِ ؛ لأَنَّهَا المُحَرِّكُ الَّذِي يَدْعُوْ الإِنْسَانَ إِلَىٰ فِعْلِ أَي شَيْءٍ وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَرَّكُ إِلَىٰ فِعْلِ أَي شَيْءٍ إِلَّا بِنَاءً عَلَىٰ مُعْتَقَدٍ رَاسِخٍ لَدَيْهِ ، أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَفْعَلَ كَذَا أَوْ أَنْ يَتْرُكَ كَذَا ، فَهِيَ تَمْنَحُ صَاحِبَهَا الرَّاحَةَ النَّفْسِيَّةَ وَتُنِيْرُ لَهُ سُبُلَ السَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ وَتَدْفَعُهُ إِلَىٰ الحَزْمِ والعَزْمِ وَالجِدِّ فِي الأُمُورِ .

وَذُوْ الهِمَّةِ العَلْيَاءِ مَنْ لَيْسَ جَاعِلاً ... مُقَادَتَــهُ لِلجَاهِلِ النَّــذْلِ مَأْخَذَا

وَلاَ تَــارِكَ الأَقْذَارِ تَعْلُــوا ذُيُولُهُ ... إِلَيْــهِ وَلاَ فِي عِرْضِهِ النَّاسَ جُذَّا[1]

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْم بْن مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللّهُ- :

خُــذْ مِــنَ الحِـكْـمَـةِ شَيْـئًا ... فَــهِـيَ أَقْــوَالٌ سَــدِيْــدَةْ

إِنَّـــمَا الهِـــمَّـــةُ تَـصْـفُـو ... عِــنْـدَمَـا تَـصْـفُـو الـعَـقِـيْـدَةْ

٣ـ قُوَّةُ الإِيْمَانُ بِاللّهِ :

بِحَيْثُ عَلَا الإِيْـمَانُ وَامْتَدَّ ظِلُّهُ ... وَزَانَ حُلَىٰ التَّوْحِيِّدِ تَعْطِيْلُ أَوْثَانِ[2]

(١) « زَهْرَةُ الأَكَمْ فِي الأَمْثَالِ وَالحِكَمْ » (٢/ ٢٧) .
(٢) « دِيْوَانُ ابْنِ زمْرَك » (٢٤٨٠) .

فَالإِيْمَانُ بِاللهِ -أَخِي الكَرِيْم- هُوَ البَاعِثُ الأَعْظَمُ لِلهِمَّةِ وَهُوَ السَّبَبُ الأَوَّلُ لِشَرَفِهَا ؛ ذَلِكَ أَنَّ الإِيْمَانَ بِاللهِ يَبْعَثُ عَلَىٰ الإِقْدَامِ ، وَالشَّجَاعَةِ وَيَدْعُو إِلَىٰ الحَزْمِ وَالجِدِّ ، وَالتَّشْمِيْرِ [1] .

وَأَهْلُ الإِيْمَانِ كَمَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ -رَحِمَهُ اللّٰهُ- :

« يَنَالُوْنَ فِي المُدَّةِ اليَسِيْرَةِ مِنْ حَقَائِقِ العُلُومِ وَالأَعْمَالِ أَضْعَافَ مَا يَنَالُهُ غَيْرُهُمْ فِي قُرُونٍ وَأَجْيَالٍ » [2] .

وَكُلَّمَا ضَعُفَتْ إِرَادَةُ العَبْدِ وَوَهَنَتْ قُوَّتُهُ فِي السَّعْيِ فِي المَعَالِي ، أَمَدَّهُ هَذَا الإِيْمَانُ الصَّادِقُ بِقُوَّةٍ قَلْبِيَّةٍ ، تَتْبَعُهَا الأَعْمَالُ البَدَنِيَّةُ .

وَكُلَّمَا أَحَاطَتْ بِهِ المَخَاوِفُ كَانَ هَذَا الإِيْمَانُ حِصْنًا حَصِيْنًا يَلْجَأُ إِلَيْهِ المُؤْمِنُ فَيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ ، وَتَسْكُنُ نَفْسُهُ » [3] .

دَعُونِي مِنْ أَمَانٍ كَاذِبَاتٍ فَلَمْ أَجِدِ المُنَىٰ إِلَّا ظُنُونَا
وَهَاتُوْ لِي مِنَ الإِيْمَانِ نُوْرًا وَقَوُّوا بَيْنَ جَنْبَيَّ اليَقِيْنَا
أَمُدُّ يَدَيْ فَأَنْتَزِعُ الرَّوَاسِيْ وَأَبْنِي المَجْدَ مُؤْتَلِفًا مَكِيْنَا [4]

---

(١) انْظُرْ : « الهِمَّةُ العَالِيَةِ » لمُحَمَّد الحَمْد (١٤٩) .
(٢) « نَقْضُ المَنْطِقِ » (٨) .
(٣) انْظُرْ : « الرِّيَاضُ النَّاضِرَةِ » لابْنِ سَعْدِيٍّ (٨) .
(٤) « مَوْسُوعَةُ الشِّعْرِ الإِسْلَامِيِّ » (٤٦٢) .

٤ـ التَّوَكُّلُ :

إِنْ هَاجَنِي مِنْ هَاجِسٍ جَزَعٌ كَـانَ التَّوَكُّلَ عِنْدَهُ تُـرْسِي [(١)]

وَمِنْ أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّةِ -أَخِي الكَرِيْمِ- التَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ هُوَ الاعْتِمَادُ عَلَيْهِ فِي جَلْبِ المَنَافِعِ وَدَفْعِ المَضَارِّ، وَحُصُولِ الرِّزْقِ، وَالنَّصْرِ عَلَىٰ الأَعْدَاءِ، وَشِفَاءِ المَرْضَىٰ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهُوَ مِنْ صِفَاتِ المُؤْمِنِيْنَ، وَمِنْ شُرُوطِ الإِيْمَانِ ، وَمِنْ أَسْبَابِ عُبُودِيَّةِ القَلْبِ وَنَشَاطِهِ وَطُمَأْنِيْنَةِ النَّفْسِ وَرَاحَتِهَا ، وَعُلُوِّ الهِمَّةِ وَسُمُوِّهَا .

وَالتَّوَكُّلُ وَاجِبٌ بِالكِتَابِ والسُّنَّةِ فَهُوَ مِنْ شُرُوطِ الإِيْمَانِ وَلاَ يَتِمُّ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّىٰ يُحَقِّقَ التَّوَكُّلَ .

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المَائِدَةُ:٢٣] .

وَقَالَ اللهُ-سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آلُ عِمْرَان :١٥٩] .

وَوَصَفَ اللهُ المُؤْمِنِيْنَ بِقَوْلِهِ -تَعَالَىٰ- : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأَنْفَالُ :٢] .

(١) «مُعْجَمُ الشُّعَرَاءِ» (٢٨٣)، وَ«زَهْرَةُ الآدَابِ» (٤/ ٩١٠) .

وَوَصَفَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الَّذِيْنَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ بِلاَ حِسَابٍ بِقَوْلِهِ: « **هُمُ الَّذِيْنَ لاَ يَتَطَيَّرُونَ ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ ، وَلاَ يَكْتَوُونَ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** » [(١)] .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ : ﴿ **حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ** ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلاَمُ- حِيْنَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حِينَ قَالُوا : ﴿ **إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾** ﴾ [آل عِمْرَانُ :١٧٣] [(٢)] .

قَالَ الشَّاعِرُ :

بُلِيْتُ بِدَارٍ مَا تُقَضِّيْ هُمُوْمَهَا ... فَلَسْتُ أَرَىٰ إِلَّا التَّوَكُّلِ وَالصَّبْرَا [(٣)]

وَقَالَ آخَرُ :

هَوِّنْ عَلَيْكَ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقًا ... فَأَخُو التَّوَكُّلِ شَأْنُهُ التَّهْوِيْنُ

طَرَحَ الَّذِي عَنْ نَفْسِهِ فِي رِزْقِهِ ... لَمَّا تَيَقَّنَ أَنَّهُ مَضْمُونُ [(٤)]

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٥٤٢٠) ، وَمُسْلِمٌ (٢٢٠) ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-.
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٤٢٨٨) .
(٣) « الأَمَالِي الشَّجَرِيَّة» (١/ ٤٠٥) .
(٤) « الذَّخَائِرُ وَالبَصَائِرِ » (٣/ ١٥٧) .

٥ ـ العِلْمُ :

وَاعْلَمْ بِأَنَّ العِلْمَ أَفْضَلُ رُتْبَةٍ وَأَجَلُّ مَكْسَبَةٍ وَأَسْنَىٰ مَفْخَرِ [١]

وَمِنْ أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّةِ -أَخِي الكَرِيْم- العِلْمُ ؛ فَمَنْ اسْتَوَىٰ عِنْدَهُ العِلْمُ وَالجَهْلُ ، أَوْ كَانَ قَانِعًا بِحَالِهِ ومَا هُوَ عَلَيْهِ فَكَيْفَ تَكُونُ لَهُ هِمَّةٌ أَصْلاً؟!.

العِلْمُ يُوْرِثُ صَاحِبُهُ الفِقْهَ بِمَرَاتِبِ الأَعْمَالِ ، فَيَتَّقِيْ فُضُولَ المُبَاحَاتِ الَّتِي تَشْغَلُهُ عَنْ التَّعَبُّدِ ، كَفُضُولِ الأَكْلِ وَالنَّوْمِ وَالكَلامِ ، وَيُرَاعِي التَّوَازُنَ وَالوَسَطِيَّةَ فِي الحُقُوقِ وَالوَاجِبَاتِ امْتِثَالاً لِقَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- « **أَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ** » [٢].

وَيُبَصِّرُهُ بِتَحَيُّلِ إِبْلِيْسَ وَتَلْبِيْسِهِ عَلَيْهِ ، كَيْ يَحُوْرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا هُوَ أَعْظَمُ ثَوَابًا ، قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ : « يَجِيْئَكَ - أَيْ إِبْلِيْسُ - وَأَنْتَ فِي شَيْءٍ مِنَ الخَيْرِ، فَيُشِيْرُ لَكَ مِنَ الخَيْرِ دُوْنَهُ لِيَرْبَحَ عَلَيْكَ شِعْرَةً » [٣] .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللّهُ- :

« إِنَّ السَّالِكَ عَلَىٰ حَسَبِ عِلْمِهِ بِمَرَاتِبِ الْأَعْمَالِ، وَنَفَائِسِ الْكَسْبِ، تَكُونُ مَعْرِفَتُهُ بِالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ فِي حَالِهِ وَإِيمَانِهِ » [٤].

(١) « مَجْمُوعَةُ القَصَائِدِ الزُّهْدِيَّةِ » (١/ ٥٨٧) .
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦١٣٩) عَنْ أَبِي جُحِيْفَة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- .
(٣) انْظُرْ : « عُلُوّ الهِمَّةِ » لِلمُقَدِّم (٣٤٤) .
(٤) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ » (١/ ١٦٥) .

بَلْ إِنَّ العِلْمَ لَيَسْمُو بِصَاحِبِهِ إِلَىٰ أُفُقٍ بَعِيْدٍ .

قَالَ أَحَدُ السَّلَفِ : « أَعْتَقَنِي سَيِّدِي وَلاَ حِرْفَةَ لِي أَسْتَدِرُّ الرِّزْقَ فَحِرْتُ فِيْمَا أَعْمَلُ وَأَيِّ صَنْعَةٍ أَحْتَرِفُ ؟! ، فَسَلَكْتُ طَرِيْقَ العِلْمِ فَلَمْ يَحُلْ عَلَيَّ الحَوْلُ حَتَّىٰ جَاءَنِي الخَلِيْفَةُ يَطْرُقُ بَابِي فَلَمْ آذَنْ لَهُ » .

وَمِمَّا يُنْسَبُ لِلشَّافِعِيِّ -رَحِمَهُ اللَّه- قَوْلُهُ :

إِذَا رَأَيْتَ شَبَابَ الحَيِّ قَدْ نَشَأُوا ... لاَ يَتَحَمَّلُونَ قِلالَ الحِبْرِ والوَرَقَا

وَلاَ تَرَاهُمْ لَدَىٰ الأَشْيَاخِ فِي حِلَقٍ ... يَعُوْنَ مِنْ صَالِحِ الأَخْبَارِ مَا اتَّسَعَا

فَبَعِّدِ عَنْهُمْ وَدَعْهُمْ إِنَّهُـمْ هَمَجٌ ... قَدْ بَدَّلُوا بِعُلُوِّ الهِمَّةِ الحُمُقَا (١)

٦ ــ الصَّبْرُ :

أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَىٰ بِحَاجَتِهِ ... وَمُدْ مِنِ القَرْعِ لِلأَبْوَابِ أَنْ يَلْجَا (٢)

أَيْ أَخِي الكَرِيْمِ:الصَّبْرُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّةِ؛فَالتَّرَقِّي فِي ذَرْوَةِ الكَمَالِ، كَالطَّيَرَانِ مَعَ البَازِيِّ أَوْ التَّحْلِيْقِ مَعَ الصَّقْرِ لَنْ يَكُونَ حَتَّىٰ تَلْعَقَ الصَّبِرَ.

لاَ تَحْسَبَ المَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ ... لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حَتَّىٰ تَلْعَقَ الصَّبْرَا (٣)

---

(١) « الأَبْيَاتُ الجَامِعَةُ » (١٠) .

(٢) « الشِّعْرُ والشُّعَرَاءِ » لِابْنِ قُتَيْبَة (٢/ ٨٦٧) .

(٣) « أَمَالِي العَالِـي» (١/ ١١٣) .

وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ طَرِيْقٍ نَحْوَ العِزِّ وَكُلِّ سَبِيْلٍ إِلَىٰ المَجْدِ لاَ يَكُونُ إِلَّا عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ الصَّبْرِ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ وَمَطْرُوحٌ فِي الشَّوْكِ .

قَالَ الشَّاعِرُ :

لأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ المُنَى   فَمَا انْقَادَتِ الآمَالُ إِلَّا لِصَابِرِ [١]

٧ ـ الصِّدْقُ :

حِيْنَمَا تَصْدَأُ العَزِيْمَةُ يَخْبُو   وَهَجُ الصِّدْقِ فِي شُمُوعِ الرَّغَائِبُ [٢]

وَمِنْ أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّةِ -أَخِي الكَرِيْمِ- الصِّدْقُ ؛ فالصَّادِقُ فِي عَزْمِهِ وَفِي فِعْلِهِ صَاحِبُ هِمَّةٍ عَالِيَةٍ وَبِصِدْقِهِ فِي العَزْمِ وَالفِعْلِ يَسْعَدُ فِي الدَّارِيْنِ، فَصِدْقُ العَزِيْمَةِ الجَزْمُ وَعَدَمُ التَّرَدُّدِ، وَصِدْقُ الفِعْلِ هُوَ بَذْلُ الجَهْدِ وَاسْتِفْرَاغُ الوُسْعِ لِتَحْقِيْقِ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ، فَيَأْمَنُ صَاحِبُ العَزْمِ الصَّادِقُ مِنْ ضَعْفِ الهِمَّةِ وَالإِرَادَةِ، وَيَمْنَعُهُ صِدْقُهُ فِي الفِعْلِ مِنَ الكَسَلِ وَالفُتُورِ.

إِنَّ الفَضِيْلَةَ فِي الأَنَامِ غَدَتْ عَلَى   شَرَفِ النُّفُوسِ الشُّمِّ أَقْوَىٰ حُجَّةٍ [٣]

---

(١) « زَهْرَةُ الأَكَمِ فِي الأَمْثَالِ وَالحِكَمِ » (٣/ ٨٢) .

(٢) « دَوَاوِيْنُ الشِّعْرُ العَرَبِيِّ » (٥٩/ ١٣٢) .

(٣) « تَارِيْخُ الأَدَبِ » (١/ ٨٧) .

٨ ـ القِرَاءَةُ في السِّيَرْ وَالتَّرَاجِمِ :

مَضَىٰ السَّلَفِ الأَبْرَارُ يَعْبَقُ ذِكْرُهُمْ   فَسِيْرُواكَمَاسَارُواعَلَىٰ الدَّهْرِ وَاصْنَعُوا[١]

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْم بْن مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللّٰهُ-:

إِقْرَأْ مَآثِرَهُمْ ؛ فَهُمْ أَهْلِ التُّقَى   أَهْلِ النُّهَىٰ وَبُنَاةُ قَصْرِ السُّؤْدَدِ

سِيَـرُ الأَوَائِـلِ دَافِـعٌ لَكَ لِلعُلَا   إِنْ كُنْتَ تَطْمَحُ لِلمَعَالِي فَاقْتَدِ

وَمِنْ أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّةِ -أَخِي الكَرِيْم- القِرَاءَةُ في سِيْرَةِ النَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ؛ وَسِيْرَةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ سِيَّمَا العُلَمَاءُ والخُلَفَاءُ وَالقَادَةُ وَالعُظَمَاءُ ، وَاقْرَأْ فِي « تَارِيْخ الإِسْلَامِ » وَ« أَعْلَام النُّبَلَاءِ» وَ«البِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ » مَا يَجْعَلُكَ تَطِيْرُ بِهِمَّتِكَ إِلَىٰ حَيْثُ شَاءَ اللهُ لَكَ أَنْ تَطِيْرَ.

فَإِذَا ادَّعَيْتَ بِأَنَّ أَصْلَكَ يَافَتَى   مِنْ سَـادَةِ الأَبْطَالِ أَهْـلِ الهِمَّةِ

أَوْضِحْ لَنَا نُوْرَ الشَّهَامَةِ مِثْلُهُمْ   وَعَلَىٰ رَفِيْعِ المَجْدِ أَحْسَنَ غَيْرَةِ[٢]

وَهَذَا ابْنُ الجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- يُحَدِّثُنَا عَنْ قِرَاءَتِهِ فِي سِيْرَةِ القَوْمِ فَيَقُولُ: «... وَلَقَدْ نَظَرْتُ فِي ثُبْتِ الكُتُبِ المَوْقُوفَةِ فِي المَدْرَسَةِ النِّظَامِيَّةِ فَإِذَا هُوَ يَحْتَوِي عَلَىٰ نَحْوٍ مِنْ سِتَّةِ آلَافِ مُجَلَّدٍ... فَاسْتَفَدْتُ بِالنَّظَرِ فِيْهَا مِنْ مُلَاحَظَةِ

(١) « المَذَاهِبُ ا لأدَبِيَّةُ » (١٢٨) .
(٢) « تَارِيْخُ الأَدَبِ » (٨٧) .

سِيَرَ القَوْمِ وَقَدْرِ هِمَمِهِمْ وَحِفْظِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ وَغَرَائِبِ عُلُومِهِمْ مَا لاَ يَعْرِفُهُ مَنْ لَمْ يُطَالِعِ فَصِرْتُ أَسْتَزْرِيْ مَا النَّاسُ فِيْهِ وَأَحْتَقِرُ هِمَمَ الطُّلَّابِ وَللهِ الحَمدُ» [1].

قَالَ عَلِيُّ بْنُ مُقْلَةٍ :

وَإِذَا رَأَيْتُ فَتىً بِأَعْلَىٰ قِمَّةٍ   فِي شَامِخٍ مِنْ عِزَّةِ الْمُتَرَفِّعِ
قَالَتْ لِي النَّفْسُ العَرُوْفُ بِفَضْلِهَا   مَا كَانَ أَوْلَانِي بِهَذَا المَوْضِعِ [2]

وَقَالَ غَيْرُهُ :

كَمْ تَدَّعِي بِطَرِيْقِ القَوْمِ مَعْرِفَةً   وَأَنْتَ مُنْقَطِعٌ وَالقَوْمُ قَدْ وَصَلُوا
فَانْهَضْ إِلَىٰ ذَرْوَةِ العَلْيَاءِ مُبْتَدِرًا   عَزْمًا لِتَرْقَىٰ مَكَانًا دُوْنَهُ زُحَلُ
فَإِنْ ظَفِرْتَ بِهِ قَدْ حُزْتَ مَكْرَمَةً   بَقَاؤُهَا بِبَقَاءِ اللهِ مُتَّصِلُ [3]

٩ ـ صُحْبَةُ الأَخْيَارِ :

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ بْن مُحَمَّد العِمَاد ـ حَفِظَهُ اللهُ ـ :

صَاحَبْتُ أَهْلَ الخَنَا لَكِنْ عَلَىٰ حَذَرٍ   حَتَّىٰ غَدَوْتُ بِعَيْنِ النَّاسِ مُتَّهَمًا

---

(١) « قِمَةُ الزَّمَنِ عِنْدَ العُلَمَاءِ » (٣١) .
(٢) « الكَشْكُولُ » (٢٧١) .
(٣) « الكَشْكُولُ » (٢٣٨) .

فَقَالَ لِي ذَاتَ يَوْمٍ نَاصِحٌ لَبِقٌ مَنْ صَاحَبَ الكِيْرَ نَالَ الرِّيْحَ وَالحِمَمَا

وَقَالَ غَيْرُهُ:

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ فَمَنْ غَدَا جَلِيْسًا لِأَصْحَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا
وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْضَىٰ بِصُحْبَةِ سَاقِطٍ فَتَنْحَطَّ قَدْرًا مِنْ عُلَاكَ وَتُحْقَرَا (١)

وَمِنْ أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّةِ -أَخِي الكَرِيْم- صُحْبَةُ الأَخْيَارِ ، كَمَا أَنَّ صُحْبَةَ الأَشْرَارِ تُوْرِثُ دُنُوَّ الهِمَّةِ ، كَالرِّيْحِ إِذَا مَرَّتْ بِالطِّيْبِ حَمَلَتْ طِيْبًا ، وَإِذَا مَرَّتْ بِالخَبِيْثِ حَمَلَتْ خَبِيْثًا ، وَلِلهِ دَرُّ العَلَّامَةِ أَبِي مُحَمَّدٍ ابْنِ حَزْمٍ الأَنْدَلُسِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- حِيْنَ قَالَ : « مَنْ طَلَبَ الفَضَائِلَ لَمْ يُسَايِرْ إِلَّا أَهْلَهَا وَلَمْ يُرَافِقْ فِي تِلْكَ الطَّرِيْقِ إِلَّا أَكْرَمَ صَدِيْقٍ » (٢).

قُلْتُ: وَمَتَىٰ لَمْ يَجِدْ المَرْءُ صَدِيْقًا صَدُوْقًا فَلَا يُصَادِقْ غَيْرَ نَفْسِهِ ، كَمَا قِيْلَ:

فَإِنْ أَنَا لَمْ أَمْلِكْ صَدِيْقًا فَإِنَّنِي لِنَفْسِي صَدِيْقٌ لاَ تَخِيْسُ عُهُودُهُ
وَحَسْبُ الفَتَىٰ مِنْ رَأْيِهِ خَيْرُ صَاحِبٍ يُـؤَازِرُهُ فِي كُلِّ خَطْبٍ يَئُودُهُ (٣)

---

(١) « نَفْحُ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيْبُ » (٥/ ١٩١) .
(٢) «الأَخْلاَقُ والسِّيَـرُ » (١٠) .
(٣) « دَوَاوِيْنُ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ عَبْـرُ العُصُورِ» (٢٦/ ٦٤) .

١٠ ـ التَّحَوُّلُ عَنْ البِيْئَةِ المُثَبِّطَةِ :

إِذَا لَمْ أَجِـدْ فِي بَلْدَةٍ مَا أُرِيْــدُهُ فَعِنْدِي لِأُخْرَىٰ عَزْمَةٌ وَرِكَابُ [١]

أَيْ أَخِي الكَرِيْمِ :

قَدْ تَجِدُ فِي بِيْئَةٍ أَنْتَ فِيْهَا مِنَ التَّثْبِيْطِ وَقَتْلِ الهِمَمِ مَا يَكُونَ لِلتَّحَوُّلُ فَتَحَوَّلْ عَنْهَا غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْهَا .

وَيْحَكَ تَحَوَّلْ قَبْلَ أَنْ تُوأَدَ هِمَّتُكَ ، فَبِيْئَةٌ لَاَ صَلَاحَ فِيْهَا وَلاَ حُبَّ لِأَهْلِهَا وَلاَ تَشْجِيْعَ بَلْ غَمْطٌ وَتَثْبِيْطٌ وَسُخْرِيَّةٌ حَرِيٌّ أَنْ تُقَيِّدَكَ وَتُكَبِّلَ هِمَّتُكَ عَنْ الإِنْطِلَاقِ ، وَقَدْ رَأَيْنَا هَذَا فِي بَعْضِ القُرَىٰ ، فَمَا يَكَادُ أَحَدُهُمْ يَخْطُو خُطْوَةً نَحْوَ الاسْتِقَامَةِ إِلَّا وَتَتَّجِهُ إِلَيْهِ الأَنْظَارُ وَتُصَوَّبُ نَحْوَهُ سِهَامُ الهَمْزِ وَالغَمْزِ وَالسُخْرِيَّةِ حَتَّىٰ لَكَأَنَّهُ ارْتَكَبَ جَرِيْمَةً لاَ تُغْفَرُ وَإِذَا نَبُلَ أَحَدُهُمْ فِي عِلْمٍ مَا أَوْ صِنَاعَةٍ أَوْ حِرْفَةٍ إِلَّا وَتَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ سِهَامُ الحَسَدِ وَالنَّظْرَةِ الخَبِيْثَةِ ، فَأَيُّ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ مِنَ البَقَاءِ فِي بِيْئَةٍ هَذَا حَالُهَا ؟ .

وَلَكَ أُسْوَةٌ بِقَاتِلِ المِائَةِ [٢] « حِيْنَ عَمِلَ بِوَصِيَّةِ العَالِمِ أَنْ يَتَحَوَّلَ عَنْ أَرْضِ السُّوْءِ إِلَىٰ أَرْضٍ يَعْبُدُونَ اللهَ فِيْهَا ، وَلَمَّا جَاءَهُ المَوْتُ وَاخْتَصَمَتْ فِيْهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ العَذَابِ كَانَ قُرْبُهُ مِنَ الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ

---

(١) « زَهْرَةُ الأَكَم » (١/ ٢١٥) .

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٣٤٧٠) ، ومُسْلِمٌ (٢٧٦٦) .

بَلَدِ السُّوْءِ سَبَبًا فِي قَبْضِ مَلائِكَةِ الرَّحْمَةِ إِيَّاهُ » .

تَقُولُ ابْنَةُ السَّعْدِيِّ وَهِيَ تَلُوْمُنِي ... أَمَا لَكَ عَنْ دَارِ الهَوَانِ رَحِيْلُ ؟

فَإِنَّ عَنَاءَ المُسْتَنِيْمِ إِلَى الأَذَى ... بِحَيْثُ يَذِلُّ الأَكْرَمُونَ طَوِيْلُ

وَعِنْدَكَ مَحْبُوكُ[1] السَّرَاةِ[2] مُطَهَّمٌ[3] ... وَفِي الكَفِّ مَطْرُورٌ[4] الشَّبَاةِ[5] صَقِيْلُ[6]

١١ ـ عَدَمُ الاسْتِمَاعِ لِلْمُثَبِّطِيْنَ :

تَأَثَّرَ خَطْوُ الحَزْمِ فِي كُلِّ مَطْلَبٍ ... وَهَلْ يَعْظُمُ المَطْلُوبُ والحَزْمُ طَالِبُهْ[7]

وَمِنْ أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّةِ -أَخِي الكَرِيْمِ- عَدَمُ الاسْتِمَاعِ لِلْمُثَبِّطِيْنَ وَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- عَلَى أَصْحَابِ الكَهْفِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف:١١].

ضَرَبَ عَلَى آذَانِهِمْ فَلا يَسْمَعُونَ أَحَدًا حَوْلَهُمْ ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ المَصَائِبِ الَّتِي تَفْتِكُ بِالعَزْمِ وَتَئِدُ الهِمَّةَ فِي مَهْدِهَا سَبَبُهَا النَّاسُ .

(١) فَرَسٌ مَحْبُوكٌ : قَوِيٌّ شَدِيْدٌ .
(٢) سَرَاةُ الفَرَسِ : أَعْلَى مَتْنِهِ .
(٣) المُطَهَّمُ : التَّامُّ المُتَنَاهِي فِي الحُسْنِ .
(٤) المَطْرُوزُ : ذُو المَنْظَرِ الحَسَنِ .
(٥) الشَّبَاةُ : حَدُّ طَرَفِ السَّيْفِ .
(٦) الصَّقِيْلُ : المَجْلُوُّ .
(٧) « دِيْوَانُ عَلِي الجَارِمْ » (١٨٠) .

فَعَلَيْكَ أَنْ تَمْضِيَ فِي سَبِيْلِكَ أَصَمَّ أَبْكَمَ إِلَّا مِنْ نِدَاءِ الحَقِّ .

قَالَ الشَّاعِرُ :

قَالَ لِي صَاحِبٌ : أَرَاكَ غَرِيْبًا بَيْنَ هَذَا الأَنَامِ دُونَ خَلِيْلِ
قُلْتُ: كَلَّا ، بَلْ الأَنَامُ غَرِيْبٌ أَنَا فِي عَالَمِي ، وَهَذَا سَبِيْلِي

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ بْن مُحَمَّد العِمَاد ـ حَفِظَهُ اللّهُ ـ :

إِذَا مَا سَمِعْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا مُثَبِّطًا أَدِرْ عَيْنَكَ العَمْيَاءَ وَالأُذْنَ الصَّمَّا
فَفِي قَوْلِهِ سُمٌّ زَعَافٌ أَعَدَّهُ وَلَيْسَ صَحِيْحَ القَلْبِ مَنْ يَشْربُ السُّمَّا

١٢ ـ التَّفَاؤُلُ :

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ بْن مُحَمَّد العِمَاد ـ حَفِظَهُ اللّهُ ـ :

سِرْ بِالتَّفَاؤُلِ شَامِخًا نَحْوَ العُلَا إِنَّ التَّفَاؤُلَ لِلطُّمُوحِ وَقُودُ
وَدَعْ التَّكَاسُلَ وَالإِيَاس فَإِنَّمَا يَأْسُ الفَتَىٰ نَحْوَ الحَضِيْضِ يَعُودُ

فَمِنْ أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّةِ - أَيُّهَا الأَخ الكَرِيْم- التَّفَاؤُلُ ؛ فَالتَّفَاؤُلُ يَدْعُو لِعُلُوِّ الهِمَّةِ ، وَاطِّرَاحِ الخَوَرِ وَالكَسَلِ ، وَيَقُودُ إِلَىٰ الإِقْبَالِ عَلَىٰ الجِدِّ وَالعَمَلِ والثِّقَةِ بِاللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَمَهْمَا كَانَتْ المِحَنُ فَفِي طَيِّهَا مِنَحٌ ، كَمَا قِيْلَ :

لَا تَكْرَهُ المَكْرُوْهَ عِنْدَ حُلُولِهِ إِنَّ العَوَاقِبَ لَمْ تَزَلْ مُتَبَايِنَةْ

كَمْ نِعْمَةٍ لاَ تَسْـتَقِلُّ بِشُـكْرِهَا ... لِلهِ فِي طَـيِّ المَـكَارِهِ كَامِنَـةْ [(١)]

١٣ ـ البُعْدُ عَنْ سَفَاسِفِ الأُمُورِ :

يَطْلُبُ المَطْلَبَ البَعِيْدُ وَلاَ يُثْنِيْهِ ... عَـنْـهُ سَـفَـاسِـفُ الحُـسَّـادِ [(٢)]

وَمِنْ أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّةِ -أَخِي الكَرِيْمِ- البُعْدُ عَنْ سَفَاسِفِ الأُمُورِ وَدَنَايَاهَا وَالتَّرَفُّعُ عَنْ مَجَالِسِ اللَّغْوِ وَإِضَاعَةِ الوَقْتِ فِي الشَّوَارِعِ وَالمُتَنَزَّهَاتِ، وَالزِّيَارَاتِ غَيْرِ المُجْدِيَةِ .

قَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- مُتَأَلِّمًا مِنْ حَالِ مَنْ يَقْطَعُ يَوْمَهُ وَلَيْلَتَهُ فِي سَفَاسِفِ الأُمُورِ :

« قَدْ رَأَيْتُ عُمُومَ الخَلاَئِقِ يَدْفَعُونَ الزَّمَانَ دَفْعًا عَجِيْبًا ، وَإِنْ طَالَ اللَّيْلُ فَبِحَدِيْثٍ لاَ يَنْفَعُ ، أَوْ بِقِرَاءَةِ كِتَابٍ فِيْهِ غَزَلٌ وَسَمَرٌ، وَإِنْ طَالَ النَّهَارُ فَبِالنَّوْمِ، وَهُمْ فِي أَطْرَافِ النَّهَارِ عَلَىٰ وَجْلَةَ أَوْ فِي الأَسْوَاقِ فَشَبَّهْتُهُمْ بِالمُتَحَدِّثِيْنَ فِي سَفِيْنَةٍ وَهِيَ تَجْرِي وَمَا عِنْدَهُمْ خَبَرٌ، وَرَأَيْتُ النَّادِرِيْنَ قَدْ فَهِمُوا مَعْنَىٰ الزَّمَانِ وَتَهَيَّؤُوا لِلرَحِيْلِ ، فَاللهَ اللهَ فِي مَوَاسِمِ العُمُرِ ، وَالبِدَارَ البِدَارَ قَبْلَ الفَوَاتِ ، وَنَافِسُوا الزَّمَانَ » [(٣)] .

---

(١) « أَدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّيْنِ » (٢٩٣) .

(٢) « دَوَاوِيْنُ الشِّعْرُ » (٤٠٣/٤٣) .

(٣) « صَيْدُ الخَاطِرِ » (٤٦) .

وَلَمَّا فَرَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلُ – صَقْرُ قُرَيْشٍ – مِنَ العَبَّاسِيِّنَ، وَتَوَجَّهَ تِلْقَاءَ الأَنْدَلُسِ ؛ أُهْدِيَتْ لَهُ جَارِيَةٌ جَمِيلَةٌ ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَقَالَ : « إِنَّ هَذِهِ مِنَ القَلْبِ والعَيْنِ بِمَكَانٍ ، وَإِنْ أَنَا اشْتَغَلْتُ عَنْهَا بِهِمَّتِي فِيمَا أَطْلُبُهُ ظَلَمْتُهَا ، وَإِنْ اشْتَغَلْتُ بِهَا عَمَّا أَطْلُبُهُ ظَلَمْتُ هِمَّتِي ، وَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا الآنَ ، وَرَدَّهَا عَلَىٰ صَاحِبِهَا » [١] .

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيمِ بْنُ مُحَمَّدٍ العِمَادِ ـ حَفِظَهُ اللهُ ـ :

كُنْ كَالنُّجُومِ الغُرِّ كَالشَّمْسِ ... الَّتِي سَمَائِهَا لاَ تَرْهَبُ الأَفْلاَكَا

كَالصَّقْرِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ مُحَلِّقًا ... والخَلْقُ عَنْ أَهْوَالِهِ تَتَحَاكَى

كَاللَّيْثِ يَأْنَفُ أَنْ يَصِيدُ خَنَافِسًا ... وَيُحَاذِرُ الصَّيَّادَ وَالأَشْرَاكَا

وَقَالَ غَيْرُهُ :

فَتًى لاَ يَضُمُّ القَلْبُ هِمَّاتِ قَلْبِهِ ... وَلَوْ ضَمَّهَا قَلْبٌ لَمَا ضَمَّهُ صَدْرُ [٢]

١٤ ـ مَعْرِفَةُ قِيمَةِ النَّفْسِ وَشَرَفِهَا :

هِمَّتِي هِمَّةُ المُلُوكِ وَنَفْسِي ... نَفْسُ حُرٍّ تَرَىٰ المَذَلَّةَ كُفْرَا [٣]

(١) « مَوْسُوعَةُ البُحُوثِ » (٤) .
(٢) « دَوَاوِينُ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ » (٤٧/ ٢٧٦) .
(٣) « دِيْوَانُ الشَّافِعِيِّ » (٤٧) .

أَيْ أَخِي الكَرِيْمِ :

قَدْ قِيْلَ : إِنَّ اكْتِشَافَ الإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ وَتَعُّرفِهِ عَلَىٰ كُنُوزِهِ لَيْسَ بِالشَّيْءِ الهَيِّنِ ، إِنَّهُ اكْتِشَافٌ دَقِيْقٌ لاَ يُوَفَّقُ لِذَلِكَ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ ، وَلَيْسَ المَقْصُودُ أَنْ يَغْتَرَّ الإِنْسَانُ أَوْ يُعْجَبَ بِنَفْسِهِ وَيَتَكَبَّرَ إِنَّمَا المَقْصُودُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ فِي الخَلِيْقَةِ شَيْءٌ آخَرُ لاَ يُشْبِهُهُ أَحَدٌ فَيَحْرِصَ عَلَىٰ أَنْ يَرْفَعَ قِيْمَتَهُ وَيُغْلِي ثَمَنَهُ بِعِلْمٍ نَافِعٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ وَأَخْلاَقٍ عَالِيَةٍ ، وَبِذَلِكَ تَعْلُو هِمَّتُهُ وَتَسْمُو بِهِ إِلَىٰ أُفُقٍ بَعِيْدٍ .

هَـذَا زَمَـانٌ لاَ تَوَسُّـطَ عِنْـدَهُ ... يَبْغِـي المُغَامِـرَ عَالِيًـا وَجَلِيْـلاً
كُنْ سَـابِقًا فِيْـهِ أَوِ ابْـقَ بِمَعْزِلٍ ... لَيْـسَ التَّوَسُّـطُ لِلنُّبُوغِ سَـبِيْلاً (١)

وَقَالَ عَنْتَرَةُ :

وَقَدْ هَانَ عِنْدِي بَذْلُ نَفْسٍ عَزِيْزَةٍ ... وَلَـوْ فَارَقَتْنِي مَا بَكَتْهَـا جَوَارِحِي
وَأَيْسَرُ مَـنْ كَفِّي إِذَا مَـا مَدَدْتُهَا ... لِنَيْلِ عَطَاءٍ مَدُّ عُنْقِيْ لِذَابِحِ (٢)

١٥ ـ اليَقَظَةُ وَالمُسَارَعَةُ :

فَغَفْلَتُهُ مِنْ شِـدَّةِ الحَـزْمِ يَقْظَةٌ ... وَغَيْبَتُـهُ عَمَّا يُرِيْـدُ حُضُورُ (٣)

---

(١) « دِيْوَانُ أَحْمَدُ شَوْقِي » (١/ ٦٦٥) .
(٢) « دَوَاوِيْنُ الشِّعْرُ العَرَبِـيِّ » (٣/ ١٣٣) .
(٣) « دِيْوَانُ البُوصِيْـرِي » (١٢٠) .

وَمِنْ أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّةِ -أَخِي الكَرِيْم- اليَقَظَةُ وَالمُسَارَعَةُ بِحَيْثُ يُفَارِقُ العَبْدُ بِيَقْظَتِهِ جُمُوعَ الغَافِلِيْنَ، وَيَخْلَعُ ثَوْبَ النَّوْمِ وَالرُّقَادِ، فَلاَ يَقِرُّ لَهُ قَرَارٌ حَتَّىٰ يَسْكُنَ فِي جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ يَحْدُوهُ قَوْلُ مَوْلاَهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- ﴿ ۞ **وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١٣٣].

وَهُوَ يَرْجُو أَنْ يَجْعَلَهُ مَوْلاَهُ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ** ﴿٦١﴾ ﴾ [المُؤْمِنُون: ٦١].

فَلاَ يَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ الارْتِقَاءَ بِهِمَّتِهِ أَنْ يَرْتَمِي فِي أَحْضَانِ الغَافِلِيْنَ وَإِلَّا عَضَّ أَسِنَّةَ النَّدَمِ.

لَمَّا قَدِمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذُو الجَوْشَنِ الكِلاَبِيُّ وَأَهْدَىٰ إِلَيْهِ فَرَسًا وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ، فَأَبَىٰ رَسُولُ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ وَقَالَ: « **إِنْ شِئْتَ بِعْتَنِيْهِ بِالمُتَخَيَّرَاتِ مِنْ أَدْرُعِ بَدْرٍ** »، ثُمَّ قَالَ لَهُ: « **يَا ذَا الجَوْشَنِ هَلْ لَكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ أَوَائِلِ هَذَا الأَمْرِ ؟** ».

قَالَ: لا، قَالَ: « **فَمَا يَمْنَعُكَ مِنْهُ ؟** » قَالَ: رَأَيْتُ قَوْمَكَ كَذَّبُوكَ، وَأَخْرَجُوكَ، وَقَاتَلُوكَ، فَأَنْظُرُ، فَإِنْ ظَهَرْتَ عَلَيْهِمْ آمَنْتُ بِكَ وَاتَّبَعْتُكَ، وَإِنْ ظَهَرُوا عَلَيْكَ لَمْ أَتَّبِعْكَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **يَا ذَا الجَوْشَنِ لَعَلَّكَ إِنْ بَقِيتَ قَرِيبًا أَنْ تَرَى ظُهُورِي عَلَيْهِمْ** »، قَالَ: فَوَاللَّهِ إِنِّي لَبِضَرِيَّةٍ إِذْ

قَدِمَ عَلَيْنَا رَاكِبٌ مِنْ قِبَلِ مَكَّةَ ، فَقُلْنَا : مَا الْخَبَرُ وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : ظَهَرَ مُحَمَّدٌ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ قَالَ : فَكَانَ ذُو الْجَوْشَنِ يَتَوَجَّعُ عَلَى تَرْكِهِ الإِسْلامَ حِينَ دَعَاهُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – »[1].

١٦ ــ التَّشْجِيْعُ :

بَاتَتْ تُشَجِّعُنِي هِنْدٌ وَقَدْ عَلِمَتْ ... أَنَّ الشَّجَاعَةَ مَقْرُونٌ بِهَا العَطَبُ[2]

أَيْ أَخِي الكَرِيْمِ :

التَّشْجِيْعُ سَبَبٌ عَظِيْمٌ فِي سُمُوِّ الهِمَّةِ ، وَلاَ أُبَالِغُ إِنْ قُلْتُ إِنَّ التَّشْجِيْعَ أَيْنَمَا وُجِدَ وُجِدَتْ الهِمَّةُ .

وَالتَّشْجِيْعُ يَحْفَلُ بِهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةِ .

فَكُلُّ تَحُثُّ عَلَىٰ فِعْلَ الخَيْرِ وَتُرَغِّبُ فِيْهِ فَذَلِكَ الحَثُّ وَذَلِكَ التَّرْغِيْبُ هُوَ التَّشْجِيْعُ وَكَذَلِكَ السُّنَّةِ .

وَفِي ثَنَاءِ النَّبِيِّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَىٰ الصَّحَابَةِ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ– وَالإِشَادَةِ بِهِمْ تَشْجِيْعٌ لَهُمْ وَيَقْتَدِي بِهِمْ غَيْرُهُمْ فِي تِلْكَ الخِصَالِ الحَمِيْدَةِ .

فَإِذَا رَأَيْتَ رَجُلاً فِي طَرِيْقِ الاسْتِقَامَةِ فَشَجِّعْهُ وَشُدَّ مِنْ عَضُدِهِ ، وَإِذَا رَأَيْتَ رَجُلاً مُقْبِلاً عَلَىٰ عَمَلِ الخَيْرِ فَشُدَّ مِنْ أَزْرِهِ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ، وَإِذَا

(١) أَخْرَجَهُ ابْن سَعِيْدٍ فِي الطَّبَقَةِ (٦/ ٤٧) ، بِإِسْنَادٍ صَحِيْحٍ .
(٢) « دِيْوَانُ المَعَانِي » (٢/ ٢٤٩) .

رَأَيْتَ مَنْ يَقُومُ اللَّيْلَ فَقُلْ لَهُ : أَحْسَنْتَ ، وَاذْكُرْ الأَدِلَّةَ الَّتِي تُشَجِّعُهُ ، وَإِذَا رَأَيْتَ مَنْ يُرِيْدُ حِفْظَ القُرْآنِ فَاذْكُرْ لَهُ فَضْلُ حَافِظِ القُرْآنِ، وَهَكَذَا .

فَقَدْ تَسَابقَ المُسْلِمُونَ فِي شَتَّىٰ العُصُورِ عَلَىٰ تَشْجِيْعِ المَوْهُوبِيْنَ وَكَبِيْرِي الهِمَّةِ ، بِكَافَّةِ صُوَرِ التَّشْجِيْعِ .

فَفِي تَرْجَمَةِ الإِمَام أَبِي حَيَّانَ مُحَمَّدِ بْن يُوسُفٍ الغَرْنَاطِي ، قَالَ فِيْهِ الصَّفْدِيُّ: « لَمْ أَرَهُ قَطُّ إِلَّا يَسْمَعُ أَوْ يَكْتُبُ أَوْ يَنْظُرُ فِي كِتَاب، وَلَمْ أَرَهُ عَلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ ، وَكَانَ لَهُ إِقْبَالٌ عَلَىٰ أَذْكِيَاءِ ا لطَلَبَةِ يُعَظِّمُهُمْ وَيُنَوِّهُ بِقَدْرِهِم» [1] .

وَكَانَ المُعَلِّمُونَ فِي الكَتَاتِيْبِ والمَسَاجِدِ وَالأَزْهَرِ إِذَا لَمِسُوا فِي طِفْلٍ النَّجَابَةَ وَسُرْعَةَ التَّعَلُّم ، احْتَضَنُوهُ ، وَسَاعَدُوهُ عَلَىٰ طَلَبِ العِلْمِ وَزَوَّدُهُ بِالمَالِ ، مِنْ مَالِهِمْ الخَاصِّ ، أَوْ مِنْ الأَوْقَافِ » [2] .

وَمِنْ طَرِيْفِ مَا يُذْكَرُ أَنَّ إِحْدَىٰ الشَّرِكَاتِ المَشْهُورَةِ طَرَحَتْ سُؤَالاً عَنِ الأَمْرِ الَّذِي يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ نِمُوُّ الأَدَبِ وَازْدِهَارُ العُلُومِ ، وَجَعَلَتْ لِمَنْ يُحْسِنُ الجَوَابَ جَائِزَةً قَيِّمَةً .

وَكَانَتْ الجَائِزَةُ مِنْ نَصِيْبِ امْرَأَةٍ قَالَتْ : « إِنَّهُ التَّشْجِيْعُ » [3] .

---

(١) « الدُّرَرُ الكَامِنَة» (٥/ ٧٠) .
(٢) « عُلُوّ الهِمَّة» (٣٩٥) .
(٣) « المَرْجِعُ السَّابِقُ» (٣٩٩) .

١٧ ـ انْتِهَازُ الفُرَصِ :

كَمْ فُرْصَةٍ ذَهَبَتْ فَعَادَتْ غُصَّةً تُشْجِي بِطُولِ تَلَهُّفٍ وَتَنَدُّمٍ [١]

أَيْ أَخِي الكَرِيْمِ :

انْتِهَازُ الفُرَصِ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّةِ ؛ فَكُلُّنَا يَعْرِفُ قِيمَةَ الفُرْصَةِ بَعْدَ أَنْ تَضِيْعَ وَنُحَاوِلُ اقْتِنَاصَهَا عِنْدَمَا تُصْبِحُ بَعِيْدَةٌ عَنْ مُتَنَاوِلِ اليَدِ ، وَنَتَمَنَّىٰ عَوْدَتَهَا مِنْ جَدِيْدٍ لَعَلَّنَا نُعَوِّضُ عَمَّا فَاتَنَا مِنْهَا، وَلَكِنْ أَصْحَابُ الهِمَمِ هُمْ الَّذِيْنَ يُوَفَّقُونَ لاِقْتِنَاصِهَا فِي الوَقْتِ المُنَاسِبِ، لِذَلِكَ فَإِنَّهُمْ وَحْدَهُمْ المُنْتَفِعُونَ بِهَا دُوْنَ غَيْرِهِمْ .

وَالفُرَصُ تَأْتِي مُتَنَكِّرَةً وَتَذْهَبُ سَاخِرَةً ، وَهَذَا هُوَ السِّرُّ وَرَاءَ تَضْيِيْعِهَا مِنْ قِبَلِ الكَثِيْرِيْنَ .

لَكِنَّ صَاحِبَ الهِمَّةِ يُبَادِرُ الفُرْصَةَ قَبْلَ فَوْتِهَا ، أَمَّا غَيْرُهُ فَيَنْتَظِرُهَا حَتَّىٰ تَأْتِي إِلَىٰ حُضْنِهِ ، وَلاَ شَكَّ أَنَّ الفُرْصَ عَزِيْزَةُ النَّفْسِ فَهِيَ لاَ تُبَالِي بِمَنْ لاَ يُبَالِي بِهَا .

وَمِنْ خَصَائِصِ الفُرْصَةِ مَا يَأْتِي :

١ – تَأْتِي ضَبَابِيَّةَ ، غَيْرَ وَاضِحَةِ المَعَالِمِ .

---

(١) « الآدَابُ النَّافِعَة » (٣٦) .

٢- لاَ تُبْطِئُ ، فَالزَمَانُ لَيْسَ فِي مَصْلَحَةِ مَنْ يُرِيْدُ اقْتِنَاصَهَا .

٣- تَأْتِي مُتَكَافِئَةً وَمُتَسَاوِيَةً ، وَفِي مُتَنَاوَلِ اليَدِ وَاقْتِنَاصُهَا مُتَاحٌ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَكَمَا قِيْلَ : تَقْرَعُ كُلَّ الأَبْوَابِ وَبِحَذَرٍ ، وَقَدْ لاَ يَكُونُ أَحَدٌ فِي الدَّاخِلِ حَاشَا أَصْحَابَ الهِمَمِ فَهُمْ يَنْتَظِرُونَهَا وَكَأَنَّهُمْ عَلَىٰ مَوْعِدٍ مَعَهَا .

٤- إِنَّهَا مَتَىٰ ذَهَبَتْ لاَ تَعُوْدُ .

كَيْفَ يَكُونُ اغْتِنَامُ الفُرَصِ ؟ .

اغْتِنَامُ الفُرَصِ يَتِمُّ بِالطُّرُقِ الآتِيَةِ :

١ - الاسْتِعْدَادُ المُسْبَقُ :

لاَ يَيْأَسَنَّ نَائِمٌ أَنْ يَغْنَمَا   مَنْ غَنِمَ الفُرْصَةَ أَدْرَكَ المُنَىٰ (١)

أَيْ أَخِي الكَرِيْمِ :

الفُرَصُ كَسَحَابَاتِ الصَّيْفِ : غَنِيَّةٌ بِالمَطَرِ ، وَلَكِنَّهَا سَرِيْعَةٌ بِالمَسِيْرِ ، فَمَنْ أَرَادَ المَاءَ فَلاَ بُدَّ أَنْ يُبَادِرَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِي السَّحَابُ فَيُهَيِّءُ وَسِيْلَتَهُ مُتَطَلِّعًا نَحْوَ الأُفُقِ ، فَإِذَا هَطَلَ المَطَرُ كَانَ لَهُ النَّصِيْبُ الأَوْفَرُ ، أَمَّا مَنْ يَبْحَثُ عَنْ الوَسِيْلَةِ بَيْنَمَا السَحَابَاتُ تَمُرُّ فَوْقَ رَأْسِهِ مُتَثَاقِلاً فِي حَرَكَتِهِ ، فَإِنَّهُ يُضَيِّعُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الوَقْتَ وَالمَطَرَ .

---

(١) « ذَيْلُ نَفْحَةُ الرَّيْحَانَة » (٦/ ٢١٢) .

كَذَلِكَ الصَّيَّادُ الَّذِي يَغْتَنِمُ الفُرَصَ يُهَيِّئُ الوَسِيْلَةَ أَوَّلاً ثُمَّ يَنْتَظِرُ الفَرِيْسَةَ.

فَهَلْ إِذَا انْتَظَرَ الفَرِيْسَةَ ثُمَّ بَعْدَ أَنْ وَجدَهَا ذَهَبَ يَبْحَثُ عَنْ الوَسِيْلَةِ لِصَيْدِهَا أَيَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ اغْتَنَمَ الفُرَصَ ؟! .

كَلَّا لَمْ يَصْدُقُ عَلَيْهِ ! لِأَنَّهُ يُشْبِهُ الجُنْدِيَّ الَّذِي دَخَلَ المَعْرَكَةَ بِلاَ سِلَاحٍ .

وَلِلّهِ دَرُّ البَارُودِيِّ حِيْنَ قَالَ :

بَـادِرِ الفُرْصَةَ وَاحْـذَرْ فَوْتَهَا فَبُلُوغُ العِزِّ فِي نَيْلِ الفُرَصْ

فَابْتَدِرْ مَسْعَاكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ بَادَرَ الصَّيْدَ مَعَ الفَجْرِ قَنَصْ (١)

٢ - الوُثُوبُ عَلَى الفُرْصَةِ وَثُوبَ الفَهْدِ دُونَ تَأَخُرٍ :

لِأَنَّهُ قَدْ قِيْلَ: «مَنْ أَخَّرَ الفُرْصَةَ عَنْ وَقْتِهَا فَلْيَكُنْ عَلَىٰ ثِقَةٍ مِنْ فَوْتِهَا » ، وَقِيْلَ: «مَنْ قَعَدَ عَنْ الفُرْصَةِ أَعْجَزَهُ الفَوْتُ » .

وَمِمَّا يُؤْثَرُ عَنْ الشَّافِعِيِّ -رَحِمَهُ اللّه- قَوْلُهُ :

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَاغْتَنِمْهَا فَـإِنَّ لِـكُـلِّ خَـافِـقَـةٍ سُـكُـونُ

وَإِنْ دَرَّتْ نِيَاقُكَ فَاحْتَلِبْهَا فَمَا تَدْرِي الفَصِيْلُ لِمَنْ يَكُونُ (٢)

---

(١) «دِيْوَانُ البَارُودِيّ» (٢٩٣) .

(٢) « مِنْ رَحِيْقِ الشِّعْرِ » (٢٠٤) .

٣- اسْتِغْلَالُ الفُرَصِ مِنْ دُوْنِ وَضْعِ شُرُوطٍ لَهَا :

مَنْ غَنِمَ الفُرْصَةَ أَدْرَكَ المُنَى   مَا فَازَ بِالكَرْمِ سُوَىٰ الَّذِي جَنَىٰ [(١)]

فالفُرَص -أَخِي الكَرِيْم- هِيَ الَّتِي تَضَعُ شُرُوطَهَا وَلَهَا ضَرِيْبَةٌ عَلَىٰ قَدْرِهَا فَالذَّهَبُ بِقَدْرِهِ، والوَرِقُ بِقَدْرِهِ، وَهَكَذَا لاَ بُدَّ دُوْنَ العَسَلِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ، وَلاَ بُدَّ مِنْ تَجَرُّعِ الغُصَّةِ حَتَّىٰ تَنَالَ الفُرْصَةَ !.

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ بْن مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللهُ- :

إِنْ أَمْكَنَتْ فُرْصَةٌ فَانْهَضْ لَهَا عَجِلاً   وَلاَ تَأَخَّـرْ فَلِلتَأْخِـيْرِ آفَـاتُ

٤- التَّمَسُّكُ بِالفُرْصَةِ وَتَرْكُ التَّرَدُّدِ :

مَتَىٰ لاَحَتْ لَكَ رِيَاحُ الفُرْصَةَ فَاغْتَنِمْهَا وَاتْرُكَ التَّرَدُّدَ جَانِبًا فَإِنَّ التَّرَدُّدَ يُضَيِّعُ عَلَيْكَ كَثِيْرًا مِنَ الفُرَصِ [(٢)].

كَمَا قِيْلَ :

وَمَنْ حَـاوَلَ، الأَمْرَ المُحَالَ بِعَزْمِهِ   يَنَلْهُ، وَمَنْ يَعْجزْ عَنْ الحَزْمِ يُحْرَمِ [(٣)]

---

(١) «نَفْحَةُ الرَّيْحَانَة» (٢/ ٢٣٢).

(٢) «حَيَاةُ الحَيَوَان» (١/ ٣١٩).

(٣) انْظُرْ: «مَهَارَاتُ النَّجَاح لِلتَّنْمِيَة البَشَرِيَّة» عَلَىٰ الشَّبَكَةِ، بِتَصَرُّفٍ وَاخْتِصَارٍ.

١٨ـ الشَّجَاعَةُ :

أَضَافَ إِلَىٰ التَّدْبِيْرِ فَضْلَ شَـجَاعَةٍ ... وَلاَ عَزْمَ إِلَّا لِلشُّـجَاعِ المُدَبِّرِ (١)

فَمنْ أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّةِ – أَخِي الكَرِيْمِ– الشَّجَاعَةُ ؛ وَتُعَرْفُ الشَّجَاعَةُ فِي اللُّغَةِ أَنَّهَا مَصْدَرُ (شَجَعَ) فُلاَنٌ أَيْ صَارَ شُجَاعًا، وَمَادَّتُهَا (شَ جَ عَ)، الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ الجُرْأَةِ وَالإِقْدَامِ ، وَأَمَّا فِي الاصْطِلَاحِ فَهِيَ الإِقْدَامُ عَلَىٰ المَكَارِهِ، وَالمَهَالِكِ عِنْدَ الحَاجَةِ إِلَىٰ ذَلِكَ وَثَبَاتُ الجَأْشِ عِنْدَ المَخَاوِفِ مَعَ الاسْتِهَانَةِ بِالمَوْتِ .

وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الشَّجَاعَةِ أَنْ يَجِدَ الرَّجُلُ فِي نَفْسه الخَوْفَ جُمْلَةً مِنَ الهَلاَكِ أَوْ الإِقْدَامِ أَوْ نَحوِ ذَلِكَ فَذَلِكَ الشُّعُورُ يَجِدُهُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ .

وَعَرَّفَهَا بَعْضُهُمْ بِأَنَّهَا التَّوَسُّطُ بَيْنَ التَّهَوُّرِ والجُبْنِ ، كَمَا قِيْلَ :

عَلَيْكَ بِأَوْسِـاطِ الأُمُـوْرِ ؛ فَإِنَّهَا ... نَجَاةٌ وَلاَ تَرْكَبْ ذَلُولاً وَلاَ صَعْبًا (٢)

وَمِمَّا يُنَمِّيَ الشَّجَاعَةَ :

سَلاَمَةُ العَقِيْدَةِ وَصِحَّتُهَا؛ فَالعَقِيْدَةُ تُعْطِي صَاحِبَهَا صِفَاتٍ نَفْسِيَّةً عَامِرَةً كَرِيْمَةً بِغَيْرِ حُدُودٍ ، وَمِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ : الجُرْأَةُ وَالشَّجَاعَةُ وَالبَسَالَةُ النَّادِرَةُ الشَّجَاعَةُ فِي كُلِّ مَيْدَانٍ مِنْ مَيَادِيْنِ الحَيَاةِ ، وَلِهَذَا تَرَىٰ جُلَّ أَصْحَابِ العَقِيْدَةِ

(١) « أَدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّيْن » (١١٠) .
(٢) « دَوَاوِيْنُ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ » (٥٨/٢٢) .

الصَّحيْحَةِ ضَرَبُوا أَرْوَعَ الأَمْثِلَةِ فِي الشَّجَاعَةِ ، وَتَأَمَّلْ إِلَىٰ شَجَاعَةِ الصَّحَابَةِ وَكَيْفَ أَنَّهُمْ أَقَامُوا الدُّنْيَا وَأَقْعَدُوْهَا ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُمْ اسْتَمَدُّوا شَجَاعَتَهُمْ مِنْ صَفَاءِ عَقِيْدَتِهِمْ وَإِيْمَانِهِمْ وَتَوَكُّلِهِمْ سِيَّمَا الإِيْمَانُ بِالقَضَاءِ والقَدَرِ .

وَمَا أَحْوَجُ الرَّأْيَ إِلَىٰ هِمَّةٍ ، وَمَا أَحْوَجَ الهِمَّةَ إِلَىٰ شَجَاعَةٍ كَمَا قَالَ المُتَنَبِّي:

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ ... هُوَ أَوَّلُ وَهِيَ المَحَلُّ الثَّانِي

فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ حُرَّةٍ ... بَلَغَتْ مِنَ العَلْيَاءِ كُلَّ مَكَانٍ (١)

١٩ـ الدِّقَةُ فِي المَوَاعِيْدِ :

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ بْن مُحَمَّد العِمَاد ـ حَفِظَهُ اللهُ ـ :

رَاقِبْ مَوَاعِيْدُ إِنْ كُنْتَ تَجْهَلُهُ ... فَدِقَّةُ المَوْعِدِ مِنْ أَخْلَاقِ ذِي الهِمَمِ

وَقَالَ آخَرُ :

تَجِيْءُ مَوَاعِيْدُ الكِرَامِ سَوِيَّةً ... وَتُنْضَىٰ مَوَاعِيْدُ اللِّئَام فَتَخِدُجُ (٢)

فَمِنْ أَسْبَاب عُلُوِّ الهِمَّةِ - أَخِي الكَرِيْمِ - الدِّقَةُ فِي المَوَاعِيْدِ ؛ فَعَالِي الهِمَّةِ لاَ يَعِدُ وَعْدًا إِلَّا وَفَّىٰ بِهِ ، وَلَوْ كَانَ شَاقًّا .

زِدْ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَعِدْ مَا قَدْ يَعْجَزُ مِنْ الوَفَاءِ بِهِ فَيُحْوِجُهُ إِلَىٰ الاعْتِذَارِ،

---

(١) « دِيْوَانُ المُتَنَبِّي » (١٣٩) .
(٢) « دِيْوَانُ بَشَّارٍ » (٣٧٨) .

فَإِذَا وَعَدَ أَخًا لَهُ لِحُضُورِ لِقَاءٍ مَا أَوْ الحُضُورِ إِلَىٰ العَمَلِ فَهُوَ يُعِدُّ لِذَلِكَ خِطَّةٍ مُسْبَقَةً تُجَنِّبُهُ التَّقْلِيْلَ مِنْ شَأْنِ الشَّخْصِ الَّذِي سَيَكُونُ انْتِظَارِهِ بِاتِّبَاعِ بَعْضِ الخُطْوَاتِ ، فَمِنْهَا :

١- ارْتِدَادُ سَاعَةٍ تَضْبِطُ الوَقْتَ .

٢- التَّوَاجُدُ بِمَكَانِ المَوْعِدِ بِحَوَالِي ١٥ دَقِيْقَةً قَبْلَ الوَقْتِ المُحَدَّدِ ؛ لِأَنَّ بَعْضَ الأَمَاكِنْ يَصْعُبُ الحُضُورُ فِي الوَقْتِ المُنَاسِبِ بِسَبَبِ الاخْتِنَاقَاتِ المُرُورِيَّةِ، وَالعُلَمَاءُ يُعْطُونَ هَذَا الأَمْرَ أَهَمِّيَةً، فَعَلَىٰ سَبِيْلِ المِثَالِ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- كَانَ دَقِيْقًا فِي مَوَاعِيْدِهِ ، شَدِيْدَ الخَوْفِ مِنْ الوَعْدِ فَهُوَ يُرَتِّبُ الأُمُورَ مُسْبَقًا لِتَفَادِي إِضَاعَةِ الوَقْتِ ، يَقُولُ تِلْمِيْذُهُ أَبُو سَلَّام صَلَاحُ بْنُ طَه مُتَحَدِّثًا عَنْ شَيْخِهِ الأَلْبَانِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- : « كَانَ يُرَبِّيْنَا عَلَىٰ الدِّقَّةِ فِي المَوَاعِيْدِ، وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ أَنَّنِي كُنْتُ دَعَوْتُهُ إِلَىٰ زِيَارَتِي أَوْ صُحْبَتِهِ إِلَىٰ دَعْوَةٍ، كَانَ -رَحِمَهُ اللهُ- لاَ يَتَأَخَّرُ وَلاَ يَتَقَدَّمُ عَنْ المَوْعِدِ المَضْرُوبِ لَهُ وَيَقُولُ : الذِّهَابُ قَبْلَ المَوْعِدِ كَالتَّأْخُّرِ عَنْ المَوْعِدِ ، فَالتَّأْخُّرَ عَنْ المَوْعِدِ يُرْبِكُ صَاحِبَ الدَّعْوَةِ، وَحَدَثَ أَنْ دَعَوْتُهُ يَوْمًا السَّاعَةَ الوَاحِدَةَ ظُهْرًا فَوَصَلَ بِسَيَّارَتِهِ قَبْلَ المَوْعِدِ بِرُبْعِ سَاعَةٍ، فَبَقَىٰ فِي سَيَّارَتِهِ جَالِسًا وَلَمْ يَنْزِلْ حَتَّىٰ حَانَ المَوْعِدُ -رَحِمَهُ اللهُ-.

وَلَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ بِوُجُودِ الشَّيْخِ إِلَّا أَنَّ الَّذِيْنَ كَانُوا بِرُفْقَةِ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ- ذَكَرُوا لِي ذَلِكَ، فَلَمَّا سَأَلْتُ الشَّيْخُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : لِأَنَّكَ قَبْلَ المَوْعِدِ

تكُونُ مَشْغُوْلاً بالاسْتِعْدَادِ لاسْتِقْبَالِ الضُّيُوفِ في المَوْعِدِ المُحَدَّدِ ... فَإِذَا دَخَلْنَا عَلَيْكَ قَبْلَ المَوْعِدِ شَغَلْنَاكَ عَمَّا أَنْتَ فِيْهِ مِنْ اسْتِعْدَادٍ وَتَجْهِيْزٍ لاسْتِقْبَالِ ضُيُوفِكَ...» (١).

وَمَا مِنْ شَكٍّ أَنَّ الدِّقَةَ في المَوَاعِيْدِ أصْبَحَ عِنْدَ الإنْجِلِيْزِ عُمُومًا ؛ فَعِنْدَهُمْ دِقَّةٌ في المَوَاعِيْدِ إِلَىٰ دَرَجَةٍ قَدْ تَتَعَجَّبُ مِنْهَا ، حَتَّىٰ أَصْبَحَتْ عِنْدهُمْ حِكْمَةٌ تَقُولُ: الدِّقَّةُ في المَوَاعِيْدِ أَدَبُ المُلُوكِ .

وَقَدْ أَثْنَىٰ اللهُ عَلَىٰ الَّذِيْنَ يُوفُونَ بِالعُهُودِ وَالوُعُودِ ، فَقَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرَّعْدُ :٢٠] .

وَقَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ **وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟** ﴾ [البَقَرَةُ :١٧٧] ، وَأَثْنَىٰ اللهُ عَلَىٰ إِسْمَاعِيْلَ بِأَنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ ، فَقَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ [مَرْيَمُ :٥٤] .

بَلْ إِنَّ الوَفَاءَ بِالوَعْدِ مِنْ صِفَةِ المَلائِكَةِ وَهَذَا مَا تَسْتَشِفُّهُ مِنْ حَدِيْثِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ : «أَخْبَرَتْنِي مَيْمُونَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَصْبَحَ يَوْمًا وَاجِمًا فَقَالَتْ مَيْمُونَةُ: يَارَسُولَ اللهِ لَقَدْ اسْتَنْكَرْتُ هَيْئَتَكَ مُنْذُ اليَوْمِ ، فَقَالَ : «**إِنَّ جِبْرِيْلَ كَانَ وَعَدَنِي أَنْ يَلْقَانِي اللَّيْلَةَ ، فَلَمْ يَلْقَنِي ، أَمَا واللهِ مَا أَخْلَفَنِي** » .

(١) « سِلْسِلَةُ العَقِيْدَةِ أَوَّلًا » المُقَدَّمَةُ لِصَالِحِ بْنِ طَه أَبِي إِسْلَامٍ .

قَالَ : فَظَلَّ رَسُولُ اللهِ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَوْمَهُ ذَلِكَ عَلَىٰ ذَلِكَ ثُمَّ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ جَرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ فُسْطَاطٍ لَنَا فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ مَاءً فَنَضَحَ مَكَانَهُ ، فَلَمَّا أَمْسَىٰ لَقِيَهُ جِبْرِيْلُ ، فَقَالَ لَهُ : « **قَدْ كُنْتَ وَعَدْتَنِي أَنْ تَلْقَانِي البَارِحَةَ ، قَالَ : أَجَلْ وَلَكِنَّا لاَ نَدْخُلُ بَيْتًا فِيْهَا كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ** »[١] .

وَالدِّقَةُ فِي المَوَاعِيْدِ سِمَةُ سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّمَا خَصَّ اللهُ –سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَى– إِسْمَاعِيْلَ لِتَمَيُّزِهِ . وَحَذَّرَنَا نَبِيُّنَا – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مَنْ خَلْفِ المَوَاعِيْدِ فَقَالَ : « آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ : « **إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ** »[٢].

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ صِفَاتِ المُنَافِقِيْنَ كَانَ التَّلَبُّسُ بِضِدُهَا مِنْ صِفَاتِ المُؤْمِنِيْنَ.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– دَقِيْقًا فِي مَوَاعِيْدِهِ لاَ يَعِدُ أَحَدًا شَيْئًا إِلَّا وَفَّىٰ بِهِ وَفِي وَقْتِهِ المُحَدَّدِ لَهُ ، وَقَدْ أَثْنَىٰ عَلَىٰ العَاصِ بْنِ الرَّبِيْعِ زَوْجِ ابْنَتِهِ زَيْنَبَ فَقَالَ : « **حَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي وَوَعَدَنِي فَوَفَىٰ لِي** »[٣].

وَلِتَعْظِيْمِ أَمْرِ الدِّقَّةِ فِي الوَعْدِ فِي نُفُوسِ أَصْحَابِهِ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ أَبُو بَكْرٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – لَمَّا تُوُفِّيَ النَّبِيِّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– : «مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عِدَةٌ أَوْ دَيْنٌ فَلْيَأْتِنِي أُنْجِزْ

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢١٠٤) .
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٣٣) ، وَمُسْلِمٌ (٥٩) .
(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٨٧٩) .

لَهُ ، فَجَاءَهُ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ قَالَ : « **لَوْ جَاءَنِي مَالُ الْبَحْرَيْنِ أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا** » يُعْنِي مِلْءَ كَفَّيْهِ ، فَلَمَّا جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أَمَرَ الصِّدِّيْقُ جَابِرًا فَغَرَفَ بِيَدَيْهِ مِنَ الْمَالِ ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِعَدِّهِ ، فَإِذَا هِيَ خُمْسُمِائَةِ دِرْهَمٍ، فَأَعْطَاهُ مِثْلَيْهَا مَعَهَا » [١] .

فَإِذَا وَعَدَّتَ وَعْدًا فَاصْبِرْ لَهُ ، وَأَنْجِزْ وَعْدَكَ فَإِنَّ الْخُلْفَ ذَمٌّ .

والوَفَاءُ يُعَدُّ مَسْأَلَةً أَسَاسِيَّةً لِإِعْطَاءِ انْطِبَاعٍ جَيِّدٍ لِلآخَرِيْنَ عَنَ نَفْسِكَ فَضْلاً عَنْ رِضَا اللهِ والسَّلَامَةِ لِدِيْنِكَ وَعِرْضِكَ !! .

قَالَ الْمُثَقَّبُ العَبْدِيُّ :

لاَ تَقُولَنَّ إِذَا مَا لَمْ تُرِدْ ... أَنْ يَتِمَّ الوَعْدُ فِي شَيْءٍ نَعَمْ
وَإِذَا قُلْتَ : نَعَمْ فَاصْبِرْ لَهَا ... بِنَجَاحِ الوَعْدِ إِنَّ الْخُلْفَ ذَمٌّ [٢]

وَقَالَ آخَرُ :

إِذَا قُلْتَ فِي شَيْءٍ نَعَمْ فَأَتِمَّهُ ... فَإِنَّ نَعَمْ دَيْنٌ عَلَى الْحُرِّ وَاجِبُ
وَإِلَّا فَقُلْ (لَا) تَسْتَرِحْ وَتُرِحْ بِهَا ... لِئَلَّا يَقُولَ النَّاسُ إِنَّكَ كَاذِبُ [٣]

(١) « تَفْسِيْرُ ابْنِ كَثِيْرٍ » (٥/ ٢٣٨) .
(٢) « الْمُفَضلِيَّاتُ وَالأَسْمَعِيَاتُ » (٥٥٧) .
(٣) « العَقْدُ الفَرِيْدُ » (١/ ٢٠٥) .

وَعْدُ الكَرِيْمِ مَتَىٰ أَوْعَدَكَ كَرِيْمٌ ، فَاصْبِرْ لَهُ فَإِنَّهُ مُنْجِزٌ لَكَ مَا وَعَدَ .

وَقَالَ الشَّاعِرُ :

إِنَّ الكَرِيْمَ إِذَا حَبَاكَ بِمَوْعِدٍ   أَعْطَاكَهُ سَلِسًا بِغَيْرِ مِطَالِ [1]

وَقَالَ آخَرُ :

إِنَّ وَعْـدَ الكَرِيْمِ دَيْـنٌ عَلَيْهِ   فَاقْضِ وَاظْفَرْ بِهِ عَلَىٰ الغُرَمَاءِ [2]

لَكِنْ إِيَّاكَ وَالإِلْحَاحَ عَلَىٰ الكِرَامِ ، فَرُبَّمَا غَلَّقُوا أَبْوَابَهُمْ دُوْنَكَ لاسْتِعْجَالِكَ وَعَدَمِ الثِّقَةِ مِنْكَ بِهِمْ ، لِأَنَّ الاسْتِعْجَالَ يُنْبِئُ عَنْ ذَلِكَ ؛ لِهَذَا كَانَ التَّأَنِّي أَمْحَضَ فِي التَّكَرُّمِ وَأَبْرَأَ مِنَ الدَّنَسِ .

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ بْنُ مُحَمَّدٍ العِمَادِ ـ حَفِظَهُ اللهُ ـ :

لاَ تَعْجَلَـنَّ عَلَىٰ الكَرِيْـمِ بِمَوْعِدٍ   إِنَّ العَجُـولَ عَـلَىٰ الكِـرَامِ لَئِيْمُ

وَقَالَ آخَرُ :

تَـأَنَّ مَوَاعِيْدَ الـكِـرَامِ ؛ فَرُبَّمَا   حَمَلْتَ مِنَ الإِلْحَاحِ سَمْحًا عَلَىٰ البُخْلِ [3]

---

(١) « مَوْسُوعَةُ الشِّعْرِ » (١/ ١٦٥) .
(٢) « دِيْوَانُ بَشَّارِ بْنِ بَرد » (٦) .
(٣) « دِيْوَانُ الحَسَنُ بِن هَانِـي » (٧٦٥) .

٢٠ـ المُجَاهَدَةُ :

أَشْعَرْتَ نَفْسَكَ مِنْهُ يَأْسَ نَزَاهَةٍ ... وَمَنَحْتَ هَمَّكَ مِنْهُ بَأْسَ مُجَاهِدِ (١)

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

المُجَاهَدَةُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّةِ؛ وَبِدُونِ المُجَاهَدَةِ لاَ يَتَحَقَّقُ شَيْءٌ.

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾ [العَنْكَبُوت:٦٩].

وَمَنْ لَمْ يُبَاشِرْ حَرَّ الهَجِيْرِ فِي طَلَبِ المَجْدِ لَمْ يَقِلْ فِي ظِلِّ الشَّرَفِ، خُلِقَ الإِنْسَانُ فِي نَصَبٍ وَكَبَدٍ، هُنَاكَ مَنْ يَكْدَحُ فِي سَبِيْلِ نَزْوَةٍ وَشَهْوَةٍ، وَالعَظِيْمُ يَكْدَحُ فِي سَبِيْلِ عَقِيْدَةٍ وَدَعْوَةٍ، وَلَيْسَ لِلعَابِدِ مُسْتَرَاحٌ إِلَّا تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةِ طُوْبَىٰ (٢).

٢١ـ المُبَادَرَةُ :

بَادِرْ إِلَىٰ الخَيْرِ يَا ذَا اللُّبِّ مُغْتَنِمَا ... وَلاَ تَكُنْ مِنْ قَلِيْلِ العُرْفِ مُحْتَشِمَا (٣)

وَمِنْ أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّةِ - أَخِي الكَرِيْم- المُبَادَرَةُ إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ وَإِلَىٰ كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ، كَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ وَالإِصْلاَحِ بَيْنَ النَّاسِ، دُوْنَ أَنْ

(١) « دِيْوَانُ ابْن القَيْسَرَانِـيِّ » (٩٦).
(٢) مَوْسُوعَةُ البُحُوْثِ « سُكَّانُ القِمَمِ » (٥).
(٣) « الازْدِهَارُ » (١٧).

تَنْتَظِرَ الإِسْنَادَ مِنْ أَحَدٍ ، فَالتَّكَالِيْفُ قَدْ أُسْنِدَتْ إِلَيْكَ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمائَةِ حِجَّةٍ، فَدَاوِمْ وَبَادِرْ وَثَابِرْ ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آلُ عِمْرَانَ :٢٠٠] .

قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ** »(١) .

وَيَقُولُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ ، حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ** » .

بَادِرِ الخَوْفَ وَقَدِّمْ صَالِحًا ... مَا لِمَنْ مَاتَ إِلَىٰ الدُّنْيَا رُجُوْعْ(٢)

وَقَالَ ابْنُ القَيْسَرَانِيُّ :

بَادِرْ جَمَالَكَ بِالجَمِيْلِ فَرُبَّمَا ... ذَوَتِ المَحَاسِنُ أَوْ أَبَلَّ المُدْنَفُ(٣)

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٨٢) عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - .
(٢) « دِيْوَانُ أُسَامَةَ بْنِ مُنْقِذٍ » (٦٣٥) .
(٣) « دِيْوَانُ ابْنُ القَيْسَرَانِيِّ » (١٩٠) .

٢٢ـ التَّرْبِيَةُ مُنْذُ الصِّغَرِ :

صَغِيْرًا تُرَبِّيْهِ المَعَالِي وَفَاضِلاً تَسَوَّدَ مِنْ إِقْبَالِهِ فِي اقْتِبَالِهِ [١]

وَمِنْ أَسْبَابِ عُلُوِّ الهِمَّة - أَخِي الكَرِيْم- التَّرْبِيَةُ لِأَطْفَالِنَا مُنْذُ الصِّغَر عَلَىٰ عُلُوِّ الهِمَّةِ وَمَعَالِي الأُمُورِ والجِدِّ ، فَذَلِكَ مِنْ أَهَمِّ الأُمُورِ الَّتِي تُعِيْنُ أَطْفَالَنَا عَلَىٰ اكْتِسَابِ المَطَالِبِ العَالِيَةِ مَهْمَا صَعُبَتْ .

قَالَ صَاحِبُ الإِحْيَاءِ -رَحِمَهُ اللهُ- :« وَالصَّبِيُّ أَمَانَةٌ عِنْدَ وَالِدَيْهِ ، وَقَلْبُهُ الطَّاهِرُ جَوْهَرَةٌ نَفِيْسَةٌ ، فَإِنْ عُوِّدَ الخَيْرَ وَعُلِّمَهُ وَنَشَأَ عَلَيْهِ ، وَسَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَإِنْ عُوِّدَ الشَّرَّ ، وَأُهْمِلَ إِهْمَالَ البَهَائِمِ شَقِيَ وَهَلَكَ ، وَصِيَانَتُهُ بِأَنْ يُؤَدِّبَهُ ، وَيُعَلِّمَهُ مَحَاسِنَ الأَخْلَاقِ » [٢].

قَالَ ابْنُ خَلْدُوْنَ -رَحِمَهُ اللهُ- : « التَّعْلِيْمُ فِي الصِّغَرِ أَشَدُّ رُسُوخًا وَهُوَ الأَصْلُ لِمَا بَعْدُ » [٣] .

حَرِّضْ بَنِيْكَ عَلَىٰ الآدَابِ فِي الصِّغَرِ كَيْمَا تَقَرَّ بِهِم عَيْنَاكَ فِي الكِبَرِ
وَإِنَّمَا مَثَلُ الآدَابِ تَجْمَعُهَا فِي عُنْفُوَانِ الصِّبَا كَالنَّقْشِ فِي الحَجَرِ [٤]

(١) « دِيْوَانُ عَلِـي بْن مُحَمَّد التُّهَامِيِّ » (١٧٥) .
(٢) « إِحْيَاءُ عُلُوم الدِّيْنِ » (٣/ ٧٢) .
(٣) « مُقَدِّمَةُ ابْنُ خَلْدُون » (٣٤٦) .
(٤) « الدِّيْوَانُ المَنْسُوبِ لِعَلِـيِّ بْنِ أَبِي طَالِب» (٨١) .

البَابُ الرَّابِعُ

ثَمَرَاتُ عُلُوِّ الهِمَّةِ

* الهِمَّةُ مُقَدَّمَةُ الأَشْيَاءِ .
* حُصُولُ السَّعَادَةِ .
* الصَّبْرُ عَلَىٰ العِلْمِ الهِمَّةُ فِي طَلَبِهِ .
* الوُصُولُ إِلَىٰ مَرَاتِبَ عُلْيَا فِي العِبَادَةِ وَالزُّهْدِ .
* أَخْذُ النَّفْسِ بِالجِدِّ .
* الارْتِقَاءُ بِالأَخْلَاقِ .

ثَمَرَاتُ عُلُوِّ الهِمَّةِ

١ـ الهِمَّةُ مُقَدَّمَةُ الأَشْيَاءِ :

أَهِيْمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيْتُ فَإِنْ أَمُتْ فَلاَصَلُحَتْ دَعْدٌ لِذِي خِلَّةٍ بَعْدِي[(١)]

أَيْ أَخِي الكَرِيْمِ إِنَّ الهِمَّةَ لَهَا ثِمَارٌ أَحْلَىٰ مِنْ جَنَىٰ الشَّهْدِ فِي الفَمِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الهِمَّةَ تَكُونُ مُقَدَّمَةَ الأَشْيَاءِ ، فَبِدُونِ الهِمَّةِ لَنْ تَكُونَ هُنَاكَ ثِمَارٌ.

قَالَ الدِّيْنُورِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- : « هِمَّتَكَ فَاحْفَظْهَا؛ فَإِنَّ الهِمَّةَ مُقَدَّمَةَ الأَشْيَاءِ - أَيْ الثِّمَارِ- فَمَنْ صَلُحَتْ هِمَّتَهُ ، وَصَدَقَ فِيْهَا صَلَحَ لَهُ مَا وَرَاءُ ذَلِكَ مِنَ الأَعْمَالِ »[(٢)].

---

(١) « الأغَانِي» (١٦/ ١٧٣) ، وَالبَيْتُ وَإِنْ كَانَ فِيْهِ غَزَلٌ لَكِنَّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ هِمَّةٍ بَعِيْدَةٍ ، وَأَصْلُ ذَلِكَ قَوْلُ نَصِيْبِ الشَّاعِرِ المَشْهُورِ :

أَهِيْمُ بِوَعْدٍ مَا حَيِيْتُ فَإِنْ أَمُتْ ... فَيَا حَرَبَا مَنْ ذَا يَهِيْمُ بِهَا بَعْدِي

فَعَلَّقَ عَلَيْهَا أَحَدُ النُّقَّادِ بِقَوْلِهِ : قَبَّحَ اللهُ الشَّاعِرَ وَقَبَّحَ شِعْرَهُ ، فَلَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا مَنْ يَعْشَقُهَا بَعْدَهُ ، أَلَا قَالَ :

أَهِيْمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيْتُ فَإِنْ أَمُتْ... فَلَا صَلُحَتْ دَعْدٌ لِذِي خِلَّةٍ بَعْدِي

فَمَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ يُصْلِحُ نَفْسَهُ وَيَسْمُوْ بِهِمَّتِهِ وَيُتْعِبُ مَنْ بَعْدَهُ ، فَلَا تَصْلُحُ الزَّوْجَةُ لِأَحَدٍ بَعْدَهُ لِأَنَّهُ أَتْعَبَ مَنْ بَعْدَهُ وَأَيْأَسَ زَوْجَتَهُ مِنْ غَيْرِهِ فَهَذِهِ هِيَ « هِمَّةُ المُلُوكِ» .

(٢) « الإِنْسَانُ بَيْنَ عُلُوِّ الهِمَّةِ وَهُبُوطِهَا » (٢/ ٦٨) .

وَقَالَ الدَّرعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- :« مَنْ عَلَتْ هِمَّتَهُ عَلَتْ رُتْبَتُهُ ، وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ إِلَّا فِيمَا رَضِيَتْ لَهُ هِمَّتَهُ »[١] .[٢]

وَسَوْفَ أَخْلُصُ إِلَى بَعْضِ تِلْكَ الثِّمَارِ -بِإِذْنِ اللّهِ- فَمِنْهَا :

أ - الطُّمُوحُ :

وَإِنَّمَا النَّاسُ فِي الدُّنْيَا ذَؤوْ رُتَبٍ ... فَانْهَضْ إِلَىٰ الرُّتْبَةِ العَلْيَاءِ مِنْ رُتَبِكْ[٢]

إِذَا كَانَ الطُّمُوحُ - أَخِي الكَرِيْم- لَهُ هِمَّةٌ تَأْخُذُ بِيَدَيْهِ نَحْوَ تَحْقِيْقِ طُمُوحَاتِهِ فَلَنْ يَقِفَ فِي طَرِيْقِهِ شَيْءٌ ، إِلَّا اكْتَسَحَهُ كَالإِعْصَارِ يَأْتِي عَلَىٰ مَا حَوْلَهُ مِنَ العَوَائِقِ .

وَ قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْم بْن مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللّهُ- :

عَزِيْمَــةٌ فِي دمَانَــا لَيْــسَ يُطْفِئُهَا ... مَاءُ البِحَــارِ ، وَلاَ الأَمْزَانُ بِالهَطَلِ

وَقُــوْةٌ فِي تَفَانِيْنَــا نَــدُكُّ بِهَــا ... كُلَّ الجِبَالِ وَلاَ نَخْشَىٰ مِنَ العَذَلِ

وَتَأَمَّلْ إِلَىٰ طُمُوْح رَائِدِ الصِّنَاعَةِ اليَابَانِيَّةِ « أُوسَاهير» ، الَّذِي بَعَثَتْهُ حُكُوْمَتُهُ لِلدِّرَاسَةِ فِي أَلْمَانْيَا ، وَتَأَمَّلْ هِمَّتَهُ لِنَقْرَأَ القِصَّةَ حَتَّىٰ نتَعَرَّف عَلَىٰ الإِجَابَةِ :

---

(١) « نَشْرُ المَعَانِـي » (٢/ ٢٢) .

(٢) « مُعْجَمُ الأدَبَاء » (٢/ ٨٨٧) .

يَقُولُ الطَّالِبُ اليَابَانِيُّ « أُوسَاهير» : الَّذِي بَعَثَتْهُ حُكُومَتُهُ لِلدِّرَاسَةِ فِي أَلْمَانْيَا :

لَوْ أَنَّنِي اتَّبَعْتُ نَصَائِحَ أُسْتَاذِي الأَلْمَانِيِّ الَّذِي ذَهَبْتُ لِأَدْرُسَ عَلَيْهِ فِي جَامِعَةِ (هَامْبُورج) لَمَا وَصَلْتُ إِلَىٰ شَيْءٍ ؛ كَانَتْ حُكُومَتِي قَدْ أَرْسَلَتْنِي لِأَدْرُسَ أُصُولَ المِيْكَانِيْكَا العِلْمِيَّةِ ، كُنْتُ أَحْلَمُ بِأَنْ أَتَعَلَّمَ كَيْفَ أَصْنَعُ مُحَرِّكًا صَغِيْرًا ، كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ لِكُلِّ صِنَاعَةٍ وُحْدَةً أَسَاسِيَّةً أَوْ مَا يُسَمَّىٰ «مُوْدِيلْ» هُوَ أَسَاسُ الصِّنَاعَةِ كُلِّهَا ، وَبَدَلاً مِنْ أَنْ يَأْخُذَنِي الأَسَاتِذَةُ إِلَىٰ مَعْمَلٍ ، أَوْ مَرْكَزِ تَدْرِيْبٍ عَمَلِيٍّ ، أَخَذُوا يُعْطُونَنِي كُتُبًا لِأَقْرَأَهَا ، وَقَرَأْتُ حَتَّىٰ عَرَفْتُ نَظَرِيَّاتِ المِيْكَانِيْكَا كُلَّهَا ، وَلَكِنَّنِي ظَلَلْتُ أَمَامَ المُحَرِّكِ - أَيًّا كَانَتْ قُوَّتُهُ- وَكَأَنَّنِي أَقِفُ أَمَامَ لُغْزٍ لاَ يُحَلُّ .

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ قَرَأْتُ عَنْ مَعْرِضِ مُحَرِّكَاتٍ إِيطَالِيَّةِ الصُّنْعِ كَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ الشَّهْرِ ، وَكَانَ مَعِيَ رَاتِبِي ، وَجَدْتُ فِي المَعْرِضِ مُحَرِّكًا قُوَّةَ حُصَانَيْنِ ثَمَنُهُ يَعْدِلُ مُرَتَّبِي كُلَّهُ ، فَأَخْرَجْتُ الرَّاتِب ، وَدَفَعْتُهُ وَحَمَلْتُ المُحَرِّك وَكَانَ ثَقِيّلاً جِدًّا وَذَهَبْتُ إِلَىٰ حُجْرَتِي وَوَضَعْتُهُ عَلَىٰ المِنْضَدَةِ .

وَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ تَاجٍ مِنَ الجَوَاهِرِ ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي: هَذَا هُوَ سِرُّ قُوَّةِ أُوُرُبَّا ، لَوْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَصْنَعَ مُحَرِّكًا كَهَذَا لَغَيَّرْتُ تَارِيْخَ اليَابَانِ، وَطَافَ بِذِهْنِي خَاطِرٌ يَقُولُ : إِنَّ هَذَا المُحَرِّكَ يَتَأَلَّفُ مِنْ قِطَعٍ ذَاتِ

أَشْكَالٍ وَطَبَائِعَ شَتَّىٰ ، مَغْنَاطِيسُ كَحَذْوَةِ الحِصَانِ ، وَأَسْلَاكٌ وَأَذْرُعٌ دَافِعَةٌ وَعَجَلَاتٌ ، وَتُرُوسٌ وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ ، لَوْ أَنَّنِي اسْتَطَعْتُ أَنْ أُفَكِّكَ قِطَعَ هَذَا المُحَرِّكَ وَأُعِيْدَ تَرْكِيْبَهَا بِالطَّرِيْقَةِ نَفْسِهَا الَّتِي رَكَّبُوهَا بِهَا ، ثُمَّ شَغَّلْتُهُ فَاشْتَغَلَ أَكُونُ قَدْ خَطَوْتُ خُطْوَةً نَحْوَ سِرِّ « مُوْدِيْلِ » الصِّنَاعَةِ الأُوْرُبِيَّةِ .

وَبَحَثْتُ عَنْ رُفُوفِ الكُتُبِ الَّتِي عِنْدِي ، حَتَّىٰ عَثَرْتُ عَلَىٰ الرُّسُومِ الخَاصَّةِ بِالمُحَرِّكَاتِ وَأَخَذْتُ وَرَقًا كَثِيْرًا ، وَأَتَيْتُ بِصُنْدُوقِ أَدَوَاتِ العَمَلِ، وَمَضَيْتُ أَعْمَلُ ، رَسَمْتُ المُحَرِّكَ ، بَعْدَ أَنْ رَفَعْتَ الغِطَاءَ الَّذِي يَحْمِلُ أَجْزَاءَهُ، ثُمَّ جَعَلْتُ أُفَكِّكُهُ ، قِطْعَةً قِطْعَةً ، وَكُلَّمَا فَكَكْتُ قِطْعَةً رَسَمْتُهَا عَلَىٰ الوَرَقَةِ بِغَايَةِ الدِّقَّةِ وَأَعْطَيْتُهَا رَقَمًا ، وَشَيْئًا فَشَيْئًا فَكَكْتُهُ كُلَّهُ ، ثُمَّ أَعَدْتُ تَرْكِيْبَهُ ، وَشَغَّلْتُهُ فَاشْتَغَلَ ، كَادَ قَلْبِي يَقِفُ مِنَ الفَرَحِ ، اسْتَغْرَقَتْ العَمَلِيَّةُ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ، كُنْتُ آكُلُ فِي اليَوْمِ وَجْبَةً وَاحِدَةً ، وَلَا أُصِيبُ مِنَ النَّوْمِ إِلَّا مَا يُمَكِّنُنِي مِنْ مُوَاصَلَةِ العَمَلِ .

وَحَمَلْتُ النَّبَأَ إِلَىٰ رَئِيْسِ بَعْثَتِنَا فَقَالَ : حَسَنًا مَا فَعَلْتَ ، الآنَ لاَ بُدَّ أَنْ أَخْتَبِرَكَ ؛ سَأَتِيْكَ بِمُحَرِّكٍ مُتَعَطِّلٍ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُفَكِّكَهُ ، وَتَكْتَشِفَ مَوْضِعَ الخَطَأَ وَتُصَحِّحَهُ ، وَتَجْعَلَ هَذَا المُحَرِّكَ العَاطِلَ يَعْمَلُ ، وَكَلَّفَتْنِي هَذِهِ العَمَلِيَّةُ عَشَرَةَ أَيَّامٍ عَرَفْتُ أَثْنَاءَهَا مَوَاضِعَ الخَلَلِ ، فَقَدْ كَانَتْ قِطْعَةٌ مِنْ قِطَعِ المُحَرِّكِ بَالِيَةً مُتَآكِلَةً ، صَنَعْتُ غَيْرَهَا بِيَدَيَّ ، صَنَعْتُهَا بِالمِطْرَقَةِ وَالمَبْرَدِ.

بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ لِي رَئِيسِ البِعْثَةِ – وَكَانَ بِمَثَابَةِ الكَاهِنِ الَّذِي يَتَوَلَّىٰ قِيَادَتِي رَوْحِيًّا – قَالَ : عَلَيْكَ الآنَ أَنْ تَصْنَعَ القِطَعَ بِنَفْسِكَ ثُمَّ تُرَكِّبَهَا مُحَرِّكًا ، وَلِكَيْ أَسْتَطِيْعَ أَنْ أَفْعَلَ الْتَحَقْتُ بِمَصَانِعِ صَهْرِ الحَدِيْدِ وَصَهْرِ النِّحَاسِ وَالأَلُمْنْيُوم، بَدَلاً مِنْ أَنْ أُعِدَّ رِسَالَةَ الدُّكْتُورَاة ، كَمَا أَرَادَ مِنِّي أَسَاتِذَتِي الأَلْمَانُ.

تَحَوَّلْتُ إِلَىٰ عَامِلٍ أَلْبِسُ بَدْلَةً زَرْقَاءَ وَأَقِفُ صَاغِرًا إِلَىٰ جَانِبِ عَامِلِ صَهْرِ المَعَادِنِ ، كُنْتُ أُطِيْعُ أَوَامِرَهُ كَأَنَّهُ سَيِّدٌ عَظِيْمٌ ، حَتَّىٰ كُنْتُ أَخْدُمُهُ وَقْتَ الأَكْلِ، مَعَ أَنَّنِي مِنْ أُسْرَةِ سَامُوارَي، وَلَكِنَّنِي كُنْتُ أَخْدِمُ اليَابَانَ وَفِي سَبِيْلِ اليَابَانَ يَهُونُ كُلُّ شَيْءٍ ، قَضَيْتُ فِي هَذِهِ الدِّرَاسَاتِ وَالتَّدْرِيْبَاتِ ثَمَانِيَ سَنَوَاتٍ ، كُنْتُ أَعْمَلُ خِلاَلَهَا مَا بَيْنَ عَشَرَةٍ وَخَمْسَ عَشْرَةَ سَاعَةً فِي اليَوْمِ، وَبَعْدَ انْتِهَاءِ يَوْمِ العَمَلِ كُنْتُ آخُذُ نَوْبَةَ حِرَاسَةٍ ، وَخِلاَلَ اللَّيْلِ كُنْتُ أُرَاجِعُ قَوَاعِدَ كُلِّ صِنَاعَةٍ عَلَىٰ الطَّبِيْعَةِ .

وَعَلِمَ «المِيكَادُو» – الحَاكِمُ اليَابَانِي – بِأَمْرِي فَأَرْسَلَ لِي مِنْ مَالِهِ الخَاصِّ خَمْسَةَ آلافِ جُنَيْةٍ انْجِلِيْزِيٍّ ذَهَبًا ، اشْتَرَيْتُ بِهَا أَدَوَاتِ مَصْنَعِ مُحَرِّكَاتٍ كَامِلَةٍ وَأَدَوَاتٍ وَآلَاتٍ ، وَعِنْدَمَا أَرَدْتُ شَحْنَهَا إِلَىٰ اليَابَانَ كَانَتِ النُّقُودُ قَدْ فَرَغَتْ فَوَضَعْتُ رَاتِبِي وَكُلُّ مَا ادَّخَرْتُهُ .

وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَىٰ « نَجَازَاكِي » قِيْلَ لِي : إِنَّ «المِيكَادُو» يُرِيْدُ أَنْ يَرَانِي، قُلْتُ : لَنْ أَسْتَحِقَّ مُقَابَلَتَهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أُنْشِئَ مَصْنَعَ مُحَرِّكَاتٍ كَامِلاً ، اسْتَغْرَقَ

ذَلِكَ تِسْعَ سَنَوَاتٍ، وَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ حَمَلْتُ مَعَ مُسَاعِدِي عَشَرَةَ مُحَرِّكَاتٍ «صُنِعَ فِي اليَابَانِ» قِطْعَةً قِطْعَةً، حَمَلْنَاهُ إِلَىٰ القَصْرِ،وَدَخَلَ «الميكَادُو» وَانْحَنَيْنَا نُحَيِّيهِ وَابْتَسَمَ وَقَالَ : « هَذِهِ أَعْذَبُ مُوسِيْقَىٰ سَمِعْتَهَا فِي حَيَاتِي » ، صَوْتُ مُحَرِّكَاتٍ ، مُحَرِّكَاتٍ يَابَانِيَّةٍ خَالِصَة ، هَكَذَا مَلَكْنَا «المُودِيْلَ» وَهُوَ سِرُّ قُوَّةِ الغَرْبِ، نَقَلْنَاهُ إِلَىٰ اليَابَانِ ، نَقَلْنَا قُوَّةَ أُورُبَّا إِلَىٰ اليَابَانِ ، وَنَقَلْنَا اليَابَانَ إِلَىٰ الغَرْبِ » [١].

هِمَمٌ عَلَوْنَ عَلَىٰ السِّمَاكِ وَإِنَّمَا ... بِالجُودِ وَالإِقْدَامِ يَسْمُو مَنْ سَمَا
وَمَنَاقِبٌ أَعْيَا الأَعَادِيَ كَتْمُهَا ... وَالشَّمْسُ أَظْهَرُ أَنْ تُسَرَّ وَتُكْتَمَا [٢]

ب - التَّغَلُّبُ عَلَى الظُّرُوفِ :

فَهُوَ فِي أَقْطَعِ الصُّرُوفِ وَصُولٌ ... وَهُوَ فِي أَمْنَعِ الظُّرُوفِ مُوَاتِي [٣]

أَيْ أَخِي الكَرِيْمِ :

الهِمَّةُ مُقَدَّمَةُ النُّبُوغِ فَكَمْ هُمُ النَّوَابِغَ الَّذِيْنَ بَرَعُوا فِي العِلْمِ والعَمَلِ، وَتَارِيْخُنَا حَافِلٌ بِالمُثُلِ العُلْيَا مِنَ الرِّجَالِ .

لَكِنِّي سَأَذْكُرُ نُبُوغَ امْرَأَةٍ كَافِرَةٍ فَقَدَتْ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَلَكِنْ لَمْ تَقْعُدْ

(١) «مَجَلَّةُ المُجْتَمَعُ» عَدَدُ (٩٩٨) .
(٢) «دِيْوَانُ ابْن حيوس» (٣٦٥) .
(٣) «دِيْوَانُ جُبْرَانُ خَلِيْل» (٤٠٢) .

بِهَا هِمَّتُهَا عَنْ النُّبُوغ ، إنَّهَا « هِيلِيْن كِيْلَر » وَأَجِدُني مُضْطَرًا لِضَرْبِ المَثَلِ بِالكَافِرِيْنَ فَلاَ تَثْرِيْبَ عَلَيَّ ، فَاللهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ –قَدْ ضَرَبَ لَنَا فِي كِتَابِهِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، كَمَا ضَرَبَ الأَمْثِلَةَ بِالكَافِرِيْنَ .

فَبَعْدَ وِلاَدَةِ « هِيلِيْن كِيْلَر » بِخَمْسَةِ أَشْهُرٍ أُصِيْبَتْ بِالْتِهَابٍ فِي الدِّمَاغِ فَقَدَتْ مَعَهُ السَّمْعَ وَالبَصَرَ مَعًا ، وَبَعْدَ انْقِضَاءِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَبِيْعًا مُظْلِمًا عَلَيْهَا قَالَتْ بِكُلِّ ثِقَةٍ : سَأَذْهَبُ إِلَىٰ جَامِعَةِ « هَارفَارو » ذَاتَ يَوْمٍ ، وَقَدْ كَانَ مَا أَرَادَتْ .

(عَمَلُ الحَيَاةِ) كَانَتْ هَاتَانِ الكَلِمَتَانِ هُمَا عُنْوَانَ حَيَاةِ « هِيلِيْن كِيْلَر »، وَهِيَ فَاقِدَةُ السَّمْعِ وَالبَصَرَ ، لَقَدْ صَمَّمَتْ عَلَىٰ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ ضِيْقِ ظُرُوفِهَا إِلَىٰ اسْتِخْدَامِ مَا يَرَاهُ الجَمِيْعُ مُبَرِّرًا لِقُعُودِهَا ، بِجَعْلِهِ سَبَبًا لانْطِلاَقِهَا ، تَقُولُ عَنْ نَفْسِهَا : وَمَنَعَنِي إِلَىٰ ذَلِكَ شَوْقِي إِلَىٰ السِّبَاقِ مَعَ الفَتَيَاتِ المُبْصِرَاتِ وَالسَّامِعاتِ .

لَقَدْ فَاجَأَتْ أَصْدِقَاءَهَا فِي مَدْرَسَةِ «كَامْبِردج» لِلبَنَاتِ بِقَوْلِهَا سَأَذْهَبُ إِلَىٰ الجَامِعَةِ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَقَدْ تَحَقَّقَتْ أَحْلاَمُهَا ، وَاحِدَةً تِلْوَ الأُخْرَىٰ ، وَانْتَقَلَتْ مِنْ مَعْهَدِ «بُوسكن» إِلَىٰ مَدْرَسَةِ الصُّمِّ وَالبُكْم بـ « نُيُويُورك» وَكَانَ ذَلِكَ فِي خَرِيْفِ عَامِ ١٩٠٠م، ثُمَّ تَخَرَّجَتْ فِي الجَامِعَةِ ١٩٠٤م بِدَرَجَةِ مُمْتَازٍ ، وَأَلَّفَتْ كِتَابَهَا الأَوَّلَ «قِصَّةُ حَيَاتِي» الَّتِي كَانَتْ دَرْسًا فِي الإِرَادَةِ للإِنْسَانِ

فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَتُرْجِمَ إِلَىٰ خَمْسِينَ لُغَةً مِنْهَا العَرَبِيَّةُ ، ثُمَّ أَلَّفَتْ كِتَابَهَا الثَّانِي «عَالَمِي الخَاصُّ» عَامَ ١٩٠٨م وَأَعْقَبَتْهَا بِكِتَابَيْهَا (السَّلَامُ عِنْدَ المَسَاءِ) ، ١٩٣٨م، و«لِيَكُنْ لَنَا إِيْمَانٌ» ١٩٤١م .

مَارَسَتْ «كِيْلَير» (العَمَلَ لِلحَيَاةِ) طَوَالَ حَيَاتِهَا الفَعَّالَةِ ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تُجَهِّزُ نَفْسَهَا لِلقِيَامِ بِهِ مُنْذُ طُفُولَتِهَا واسْتَمَرَّتْ تَقُومُ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ حَتَّىٰ وَافَتْهَا المَنِيَّةُ فِي يُونْيُو ١٩٦٨م »[١].

فَأَنْتَ تَرَىٰ إِلَىٰ هِمَّةِ تِلْكَ المَرْأَةِ وَأَنَّهَا كَانَتْ سِرَّ نُبُوغِهَا مَعَ أَنَّهَا كَافِرَةٌ وَرِسَالَتَهَا كَانَتْ هَادِفَةً لِذَاتِهَا فِي الدُّنْيَا لَكِنَّهَا لَيْسَ لَهَا فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، ثُمَّ ارْجِعْ البَصَرَ فِي تِلْكَ القِصَّةِ ، وَكَيْفَ أَنَّهَا كَانَتْ لَا تَسْمَعَ وَلَا تُبْصِرُ ، ثُمَّ ارْجِعْ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ، وَهُوَ أَنَّ لَكَ هَدَفًا وَهُوَ رِضَا الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - وَأَنَّ العَيْشَ عَيْشَ الآخِرَةِ ، وَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكَ بِالسَّمْعِ وَالبَصَرِ ، فَعَلَامَ تَقْعُدُ بِكَ هِمَّتُكَ عَنْ مَعَالِي الأُمُورِ ؟، وَيْحَكَ أَتَرْضَىٰ لِنَفْسِكَ أَنْ تَسْمُوَ هِمَّةُ امْرَأَةٍ لَا تَسْمَعَ وَلَا تُبْصِرُ ، وَهِيَ كَافِرَةٌ وَأَنْتَ أَحَقُّ بِالسُّمُوِّ مِنْهَا ؟!! ، فَأَنْتَ -وَللهِ الحَمْدُ- مُسْلِمٌ وَتَسْمَعُ وَتُبْصِرُ ! وَيْحَكَ اغْتَنِمْ رِيَاحَكَ .

فَانْظُرْ إِلَىٰ هِمَمٍ جَاشَتْ بِمَعْرَكَةٍ   فِي عَسْكَرَيْنِ بِلَا طَبْلٍ وَلَا عَلَمٍ[٢]

---

(١) « كَيْفَ أَصْبَحُوا عُظَمَاءَ » سَعْد سُعُود الكِرْيَبَانِيّ (١٤٧-١٤٩) .
(٢) « المُسْتَطْرَفُ » (١/ ٤٧١) ، وانْظُرْ : « دَوَاوِيْنُ الشِّعْرُ العَرَبِيِّ (٧٣/ ٢٠١) .

جـ - النَّجَاحُ :

إِذَا أَذِنَ اللهُ فِي حَـاجَـةٍ أَتَـاكَ النَّجَاحُ بِهَـا يَرْكُضُ [(١)]

أَيْ أَخِي الكَرِيْمِ :

مِنَ السَّهْلِ أَنْ أَسْرُدَ لَكَ أَسْفَارًا مِنْ تَارِيْخِنَا العَظِيْمِ لَكِنِّي مُضْطَرٌّ أَنْ أُعْطِيَكَ مَثَلاً لِسُمُوِّ الهِمَّةِ مِنْ مَخْلُوقٍ صَغِيْرٍ وَهُوَ يَجِدُّ ذَاتِهِ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ- فِي الصَّبْرِ وَالتَّجَلُّدِ والجِدِّيَةِ وَقُوَّةِ العَزِيْمَةِ ؛ إِنَّهَا النَّمْلَةُ.

ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ التَّارِيْخِ هَذِهِ القِصَّةَ العَجِيْبَةَ عَنْ القَائِدِ «تَيْمُور لَنْكَ» ، دَخَلَ هَذَا القَائِدُ مَعْرَكَةً مِنَ المَعَارِكِ هُوَ وَجُنُودُهُ ، وَمَعَ بِدَايَةِ المَعْرَكَةِ هُزِمَ جَيْشُهُ وَتَفَرَّقَ عَنْهُ ، فَمَا كَانَ مِنْ « تَيْمُور لَنْكَ » [(٢)]، إِلَّا أَنْ هَامَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَزِيْنًا كَسِيْرًا كَئِيْبًا لِهَذِهِ الهَزِيْمَةِ المُنْكَرَةِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ إِلَىٰ بَلَدِهِ ، بَلْ ذَهَبَ إِلَىٰ مَغَارَةٍ فِي أَحَدِ الجِبَالِ ، وَجَلَسَ فِيْهَا يَتَأَمَّلُ حَالَهُ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا ،

(١) «المُحَاضَرَاتُ وَالمُحَاوَرَاتِ» (٢٥٢).

(٢) «تَيْمُور لَنْكَ» أَوْ تَيْمُورُ الأَعْرَجُ ، حَيْثُ بُتِرَتْ سَاقُهُ وَهُوَ صَغِيْرٌ ، فَأُطْلِقَ عَلَيْهِ لَقَبُ لَنْكَ أَيْ الأَعْرَجُ وَهُوَ أَحَدُ أَحْفَادِ « جَنْكِيْز خَان » وُلِدَ قُرْبَ مَدِيْنَةِ «سَمَرْقَنْدَ» فِي ٢٥ شَعْبَانَ عَام (٧٣٦هـ) وَ تَيْمُورُ تَعْنِي الحَدِيْدَ وَقَدْ كَانَ نِقْمَةً عَلَىٰ العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ وَقَامَ بِمَجَازِرَ وَحَشِيَّةٍ يَنْدَىٰ لَهَا جَبِيْنُ الإِنْسَانِيَّةِ رَغْمَ ادِّعَائِهِ الإِسْلَامَ وَالتَّدَيُّنَ ، وَكَانَ يَتَلَذَّذُ بِبِنَاءِ أَبْرَاجٍ مُشَيَّدَةٍ مِنْ جَمَاجِمِ ضَحَايَاهُ ، انْطَلَقَتْ فُتُوحَاتُهُ الدَّمَوِيَّةُ فَسَيْطَرَ عَلَىٰ إِيْرَانَ وَالعِرَاقَ وَهَاجَمَ العُثْمَانِيْنَ فِي الأَنَاضُولِ وَقَتَلَ السُّلْطَانَ بَايَزِيْدَ كَذَلِكَ هَاجَمَ الهِنْدَ وَرُوسْيَا وَوَصَلَ إِلَىٰ مُوسْكُو وَنَهَبَهَا ، وَحُرُوبُهُ البَرْبَرِيَّةُ تَحْتَاجُ إِلَىٰ أَسْفَارٍ لِشَرْحِهَا ، وَالَّذِي يَهُمُّنَا هُوَ قِصَّتُهُ مَعَ النَّمْلَةِ ! فَهِيَ الَّتِي قَدَحَتْ زِنَدَ هِمَّتِهُ .

وَجَيْشَهُ الَّذِي تَفَرَّقَ عَنْهُ .

وَبَيْنَمَا هُوَ مُسْتَغْرَقٌ فِي تَفْكِيْرِهِ ، إِذْ رَأَىٰ نَمْلَةً تُرِيْدُ أَنْ تَصْعَدَ عَلَىٰ حَجَرَةٍ مَلْسَاءَ لَكِنَّهَا تَنْطَلِقُ مُحَاوَلَةً لِلمَرَّةِ الثَّانِيَةِ وَتَسْقُطُ ، وَتُحَاوِلُ الثَّالِثَةَ وَتَسْقُطُ، وَتُحَاوِلُ الرَّابِعَةَ والخَامِسَةَ وَهَكَذَا ، فَشَدَّتْهُ ، وَانْقَطَعَ تَفْكِيْرُهُ ، وَبَدَأَ بِالتَّرْكِيْزِ مَعَ النَّمْلَةِ ، يَعُدُّ مُحَاوَلَاتِهَا لِلصُّعُودِ ، حَتَّىٰ وَصَلَتْ إِلَىٰ سِتَّ عَشْرَةَ مَرَّةً تَصْعَدُ وَتَسْقُطُ ، وَتُبَادِرُ بِالصُّعُودِ مِنْ جَدِيْدٍ ، وَفِي المُحَاوَلَةِ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ نَجَحَتْ النَّمْلَةُ فِي الصُّعُودِ .

فَقَالَ : عَجِيْبٌ هَذَا الأَمْرُ ، نَمْلَةٌ تُكَرِّرُ المُحَاوَلَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً وَلاَ تَيْأَسُ حَتَّىٰ تَنْجَحَ ، وَأَنَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ أَنْهَزِمُ أَنَا وَجَيْشِي فَأُصَابُ بِاليَأْسِ وَالإِحْبَاطِ، فَنَزَلَ مِنَ المَغَارَةِ وَقَدْ صَمَّمَ عَلَىٰ أَنْ يَجْمَعَ فُلُولَ جَيْشِهِ، وَأَنْ يَدْخُلَ المَعْرَكَةَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ، وَأَلَّا يَنْهَزِمَ مَا دَامَ حَيًّا ، وَكُلَّ هَذَا وَصُورَةُ النَّمْلَةِ لاَ تُفَارِقُ مُخَيِّلَتَهُ وَتَعِيْشُ فِي رَأْسِهِ [١].

فَتَعَلَّمْ - أَخِي- مِنْ النَّمْلَةِ الهِمَّةِ وَالعَزِيْمَةَ وَالإِصْرَارَ وَالأَمَلَ وَعَدَمَ اليَأْسِ وَقُوَّةَ التَّحَمُّلِ وَتَذَكَّرْ المَثَلَ الصِّيْنِيِّ الَّذِي يَقُولُ : « إِذَا نَهَضْتَ بَعْدَ كُلِّ مَرَّةٍ تَسْقُطُ فِيْهَا ، فَسَوْفَ تَشُقُّ طَرِيْقَكَ نَحْوَ النَّجَاحِ » .

(١) « صِنَاعَةُ الهَدَفِ » لِهِشَام مُصْطَفَىٰ وَغَيْـرِه (٦١) .

قَالَ البَارُودِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

وَمَــنْ تَكُنْ العَلْيَاءُ هِمَّةَ نَفْسِهِ فَكُلُّ الَّــذِي يَلْقَاهُ فِيْهَا مُحَبَّبُ

إِذَا أَنَــا لَمْ أُعْــطِ المَكَــارِمَ حَقَّهَا فَلَا عَزَّنِي خَالٌ وَلَا ضَمَّنِي أَبُ (١)

وَقَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

مِنَ العَارِ أَنْ يَرْضَىٰ الدَّنِيَّةَ مَاجِدٌ وَيُقْبِلَ مَكْذُوبَ المُنَىٰ وَهُوَ صَاغِرُ

إِذَا كُنْتَ تَخْشَىٰ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الرَّدَى فَكُلُّ الَّذِي فِي الكَوْنِ لِلنَّفْسِ ضَائِرُ (٢)

د - قُوَّةُ العَزِيْمَةِ:

وَفِي العَزِيْمَةِ قُــوَّاتٌ مُسَخَّرَةٌ يَخِرُّ دُوْنَ مَدَاهَا اليَأْسُ وَالوَجَلُ (٣)

أَيْ أَخِي الكَرِيْم:

الهِمَّةُ العَالِيَةُ مُقَدَّمَةٌ لِقُوَّةِ العَزِيْمَةِ، وَعَدَمِ التَّرَدُّدِ فَهَذَا عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ -رَحِمَهُ اللهُ- أَحَدُ قَادَةِ بَنِي أُمَيَّةَ فِي أَقْصَىٰ المَغْرِبِ الَّذِي جَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ بِدَايَةً مِنْ مِصْرَ مَعَ ابْنِ خَالَتِهِ عَمْرُو بْنِ العَاصِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وَكَانَ شَابًّا يَافِعًا ثُمَّ اسْتَمَرَّ فِي الجِهَادِ حَتَّىٰ بَلَغَ المَغْرِبَ الأَقْصَىٰ فَخَاضَ

(١) «دِيْوَانُ البَارُودِيِّ» (٩٦).
(٢) المَرْجِعُ السَّابِقُ (١٩٣).
(٣) «دِيْوَانُ الشَّابِـي» (٨٢).

بِجَوادِهِ بَحْرَ الظُّلُمَاتِ المُسَمَّىٰ بِالمُحِيْطِ الأَطْلَسِيِّ يَقِفُ قَائِلاً : « اللهُمَّ رَبَّ مُحَمَّدٍ لَوْلاَ هَذَا البَحْرُ لَفَتَحْتُ الدُّنْيَا فِي سَبِيْلِ إِعْلاَءِ كَلِمَاتِكَ » [١].

وَهَذَا قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ -رَحِمَهُ اللهُ- الَّذِي تَوَغَّلَ فِي آخِرِ المَشْرِقِ مُجَاهِدًا ، وَأَبَىٰ إِلَّا أَنْ يَدْخُلَ بِلاَدَ الصِّيْنِ ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُ أَتْبَاعِهِ مُحَذِّرًا مُشْفِقًا : لَقَدْ أَوْغَلْتَ فِي بِلاَدِ التُّرْكِ يَا قُتَيْبَةُ ، وَالحَوَادِثُ بَيْنَ أَجْنِحَةِ الدَّهْرِ تُقْبِلُ وَتُدْبِرُ ، فَأَجَابَهُ قُتَيْبَةُ بِقَوْلِهِ :

«بِثِقَتِي بِنَصْرِ اللهِ تَوَغَّلْتَ ، وَإِذَا انْقَضَتْ المُدَّةُ لَمْ تَنْفَعْ العُدَّةُ » ، فَلَمَّا رَأَىٰ ذَلِكَ المُحَذِّرُ عَزْمَهُ وَتَصْمِيْمَهُ عَلَىٰ المُضِيِّ قَالَ لَهُ : اسْلُكْ سَبِيْلَكَ يَا قُتَيْبَةُ فَهَذَا عَزْمُ اللهِ لاَ يُقِلُّهُ إِلَّا اللهُ » [٢] .

قَالَ ابْنُ نَبَاتَةَ :

حَاوِلْ جَسِيمَاتِ الأُمُورِ وَلاَ تَقُلْ ... إِنَّ المَحَامِدَ وَالعُلَىٰ أَرْزَاقُ

وَارْغَبْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ مُقَصِّرًا ... عَنْ غَايَةٍ فِيْهَا الطِّلَابُ سِبَاقُ [٣]

(١) « نِهَايَةِ الأَرَب» (٢٤/ ٢٨) .
(٢) «الذَّخَائِرُ والعَبْقَرِيَّات» (٢/ ٢١٥) .
(٣) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاء» (١/ ٥٢١) .

هـ - الدَّعْوَةُ إِلَى اللّهِ :

ثِقَةٌ وَإِيْـمَانٌ وَصِـدْقُ عَزِيْمَةٍ   تِلْكَ الذَّخَائِرُ مَا لَهُنَّ نَفَادُ [١]

أَيْ أَخِي الكَرِيْم :

مَا مِنْ شَكٍّ أَنَّ الهِمَّةَ مُقَدَّمَةُ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ ، وَالنَّاظِرُ فِي قِصَصِ الأَنْبِيَاءِ فِي القُرْآنِ الكَرِيْمِ والسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الصَّحِيْحَةِ لِيَرَىٰ العَجَبَ مِنْ هِمَمٍ عِظَامٍ كَذَلِكَ سِيَرُ خُلفَاءِ الأَنْبِيَاءِ ، وَصَبْرُهُمْ وَجَلَدُهُمْ وَجِدُّهُمْ وَجِهَادُهُمْ ، وَمَنْ يَقْرَأُ قِصَّةَ الغُلَامِ المُؤْمِنِ يَرَ مَا يُبْهِرُهُ مِنْ صَبْرٍ وَجَلَدٍ وَسُمُوِّ هِمَّةٍ لِتَبْلِيْغِ دَعْوَةِ اللهِ حَتَّىٰ أَنَّهُ قَدَّمَ حَيَاتَهُ ثَمَنًا لِذَلِكَ » [٢] ، وَالتَّارِيْخُ يَحْفَلُ بِمِثْلِ ذَلِكَ .

وَهَأَنَا ذَا أَذْكُرُ لَكَ قِصَّةً لِرَجُلٍ مِنْ رِجَالِ الإِسْلَامِ فِي عَصْرِنَا الحَاضِرِ أَسْلَمَ عَلَىٰ يَدَيْهِ أَكْثَرُ مِن (١١) مِلْيُون ، نَعَمْ أَكْثَرُ مِن (١١) مِلْيُون ، إِنَّهُ رَجُلٌ يُعَدُّ بِأَلْفِ رَجُلٍ .

لَـيْـسَ عَـلَىٰ اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ   أَنْ يَجْمَعَ الـعَـالَمَ فِي وَاحِـدِ [٣]

أَتَدْرِي مَنْ هَذَا الرَّجُلُ ؟!!! .

---

(١) «دِيْوَانُ أَحْمَدُ مُحُـرَّم » (٧١٩) .

(٢) « رَوَاهُ مُسْلِمٌ » (٣٠٠٥) .

(٣) «أَبُو الطَّيِّبِ ، مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ » (٦١) .

الدُّكْتُورُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السُّمَيْطُ -رَحِمَهُ اللهُ-:

إِنَّهُ الدُّكْتُورُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السُّمَيْطُ -رَحِمَهُ اللهُ- ، المَوْلُودُ فِي سَنَةِ ١٣٦٦هـ، المُتَوَفَّىٰ في ٨/ ١٠/ ١٤٣٤هـ ، دَرَسَ الطِّبَّ فِي جَامِعَةِ بَغْدَادَ ، وَأَكْمَلَ تَخَصُّصَهُ فِي بِرِيطَانْيَا بِجَامِعَةِ لِيفَرْبُولَ فِي أَمْرَاضِ المَنَاطِقِ الحَارَّةِ ، وَأَتْبَعَهَا بِتَخَصُّصِ أَمْرَاضٍ بَاطِنِيَّةٍ مِنْ مُسْتَشْفَىٰ مُونْتريَال بِكَنَدَا ، وَبَعْدَ عَوْدَتِهِ عُيِّنَ طَبِيبًا اسْتِشَارِيًّا فِي بَلْدَتِهِ الكُوَيْتِ بِمُسْتَشْفَىٰ الصُّبَاحِ ، وَبَعْدَ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ مِنْ عَمَلِهِ اسْتَقَالَ لِيَتَفَرَّغَ لِلدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- [(١)] .

كَانَ -رَحِمَهُ اللهُ- زَاهِدًا وَرِعًا فَقَدْ أَمْضَىٰ ٥ سَنَوَاتٍ فِي كَنَدَا و٣ سَنَوَاتٍ فِي بِرِيطَانْيَا ، لَمْ يَدْخُلْ أَيَّةَ مَطْعَمٍ وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مَأْكُولَاتِهَا خِشْيَةَ الحَرَامِ ، حَتَّىٰ الجُبْنُ لَا يَتَنَاوَلُهُ خَاصَّةً بَعْدَ أَنْ اكْتَشَفَ أَنَّهُمْ يَسْتَخْدِمُونَ فِي صِنَاعَتِهِ مَادَّةَ الرِنِيْتِ أَحْيَانًا وَمَصْدَرُهَا الخَنْزِيْرُ أَوْ أَبْقَارٌ لَمْ تُذْبَحْ حَسَبَ الشَّرِيْعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ .

كَانَتْ بِدَايَةُ رِحْلَتِهِ إِلَىٰ أَفْرِيْقِيَا نَتِيْجَةَ دِرَاسَةٍ مَيْدَانِيَّةٍ قَامَتْ بِهَا لَجْنَةُ مُسْلِمِي أَفْرِيْقِيَا ، أَكَّدَتْ أَنَّ مَلَايِيْنَ المُسْلِمِيْنَ فِي القَارَّةِ السَّوْدَاءِ لَا يَعْرِفُونَ عَنِ الإِسْلَامِ إِلَّا خُرَافَاتٍ وَأَسَاطِيْرِ لَا أَسَاسَ لَهَا مِنَ الصِّحَّةِ ، فَغَالِبِيَّتُهُمْ - خَاصَّةً أَطْفَالُهُمْ فِي مَدَارِس- عُرْضَةٌ لِلتَّنْصِيْرِ، وَقَدْ نَتَجَ عَنْ ذَلِكَ أَنَّ عَشَرَاتِ الآلَافِ فِي (تَنْزَانْيَا) وَ(مَلَاوِي) وَ(مَدْغَشْقَر) و(جَنُوبِ السُّوْدَانِ) وَ(كِينْيَا) و(النَّيْجَرِ) وَغَيْرِهِمَا مَنَ الدِّوَلِ الأَفْرِيْقِيَّةِ صَارُوا يَنْتَسِبُونَ إِلَىٰ

(١) « الدَّاعِيَةُ الَّذِي بَكَتْهُ أَفْرِيْقِيَا » عَبْدُ الكَرِيْمِ السَّمك السُّمَيْطُ، مَقَالٌ فِي شَبَكَةِ الأُلُوكَةِ .

النَّصْرَانِيَّةِ، بَيْنَمَا آبَاؤُهُمْ وَأُمَّهَاتُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ .

فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ تَرَكَ حَيَاةَ الرَّاحَةِ وَالدَّعْةِ وَالحَيَاةَ الرَّغِيْدَةَ ، وَأَقَامَ فِي أَفْرِيْقيَا مَعَ زَوْجَتِهِ فِي بَيْتٍ مُتَوَاضِعٍ فِي قَرْيَةٍ (مَنَاكَارَا) بِجِوَارِ قَبَائِلِ الأَنْتِمُورِ يُمَارِسَانِ الدَّعْوَةَ لِلإِسْلَامِ بِنَفْسَيْهِمَا فَيَنْجَذِبُ أُلُوفُ النَّاسِ لِدِيْنِ الإِسْلَامِ وَيَعِيْشَانِ بَيْنَ النَّاسِ فِي القُرَىٰ وَالغَابَاتِ وَيُقَدِّمَانِ لَهُمْ الخَدَمَاتِ الطِّبِّيَّةَ والاجْتِمَاعِيَّةَ وَالتَّعْلِيْمِيَّةَ ، وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ أُمُّ صُهَيْبٍ ذَاتَ هِمَّةٍ وَبَارِزَةً فِي مَجَالِهَا التَّرْبَوِيِّ ، وَالدَّعَوِيِّ .

وَكَانَ أَكْثَرُ مَا يُؤَثِّر فِي السُّمَيْطِ -رَحِمَهُ اللهُ- إِلَىٰ حَدِّ البُكَاءِ حِيْنَمَا يَدْخُلُ إِلَىٰ مَنْطِقَةٍ وَيَدْخُلُ بَعْضُ أَبْنَائِهَا فِي الإِسْلَامِ ثُمَّ يَصْرخُونَ وَيَبْكُونَ عَلَىٰ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ الَّذِيْنَ مَاتُوا عَلَىٰ غَيْرِ الإِسْلَامِ ، وَهُمْ يَسْأَلُونَ : أَيْنَ كُنْتُمْ يَامُسْلِمُونَ؟ . وَلِمَاذَا تَأَخَّرْتُمْ عَنَّا كُلَّ هَذِهِ السِّنِيْنَ ؟ .

كَانَتْ هَذِهِ الكَلِمَاتُ تَجْعَلُهُ يَبْكِي بِمَرَارَةٍ ، وَيَشْعُرُ بِجُزْءٍ مِنَ المَسْؤُلِيَّةِ تِجَاهَ هَؤُلَاءِ الَّذِيْنَ مَاتُوا عَلَىٰ الكُفْرِ .

قَطَعَ السُّمَيْطُ -رَحِمَهُ اللهُ- عَلَىٰ نَفْسِهِ العَهْدَ أَنْ يَمْضِيَ بَقِيَّةَ عُمُرِهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ هُنَاكَ كَانَ كَثِيْرًا مَا يَتَنَقَّلُ بَرًّا ، وَقَدْ سَافَرَ بِالقِطَارِ فِي أَكْثَرِ مِنْ ٤٠ سَاعَةً بِفُتَاتِ الخُبْزِ ، وَيَقُومُ بِالزِّيَارَاتِ الَّتِي يَقْطَعُ فِيْهَا السَّاعَاتِ بَيْنَ طُرُقٍ وَعِرَةٍ وَغَابَاتٍ مُظْلِمَةٍ مُخِيْفَةٍ وَأَنْهَارٍ مُوْحِشَةٍ فِي قَوَارِبَ صَغِيْرَةٍ

وَمُسْتَنْقَعَاتٍ مُنْتِنَةٍ ، كَانَ هَمُّ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ شُغْلَهُ الشَّاغِلَ حَتَّىٰ فِي اللُّقْمَةِ الَّتِي يَأْكُلُهَا ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَىٰ قَرْيَةٍ وَاجْتَمَعَ أَهْلُهَا قَالَ لَهُمْ السُّمَيْطُ -رَحِمَهُ اللهُ- : « رَبِّيَ اللهُ الوَاحِدُ الأَحَدُ الَّذِي خَلَقَنِي وَرَزَقَنِي ، وَهُوَ الَّذِي يُمِيْتُنِي وَيُحْيِيْنِي » .

كَلِمَاتٌ يَسِيْرَةٌ يَدْخُلُ بِهَا أَعْدَادٌ مِنْهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ كَانَتْ طُرُقُ الدَّعْوَةِ كَثِيْرَةً وَمُتَنَوِّعَةً مِنْهَا أَنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ مَعَهُ مَلاَبِسَ لِيُقَدِّمَهَا هَدِيَّةً لِمُلُوكِ القُرَىٰ تَأْلِيْفًا لِقُلُوبِهِمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ ، والحَلْوَىٰ لِأَطْفَالِ القَرْيَةِ مِنْ أَجْلِ إِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ ، وَكَانَ -رَحِمَهُ اللهُ- شَخْصًا مُلِمًّا بِحَيَاةِ القُرَىٰ وَالقَبَائِلِ وَعَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيْدِهِمْ ، وَيُحَاسِبُ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ مَعَهُ بِكُلِّ دِقَّةٍ وَيَقِفُ بِنَفْسِهِ حَتَّىٰ عَلَىٰ طَعَامِ الأَيْتَامِ ، وَكَانَ يَقُولُ : « أَمْوَالُ النَّاسِ الَّتِي دَفَعُوْهَا لِعَمَلِ الخَيْرِ لاَ يُمْكِنُ أَنْ أُفَرِّطَ فِي رِيَالٍ وَاحِدٍ مِنْهَا » .

كَانَ -رَحِمَهُ اللهُ- يَتَنَقَّلُ فِي حَلَقَاتِ القُرْآنِ لِيَطْمَئِنَّ عَلَىٰ حِفْظِ الأَطْفَالِ هَلْ حَفِظُوا كَمَا يَجِبُ وَيَبْتَسِمُ فِي وُجُوهِهِمْ ، وَكَانَ يَقُولُ لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ صَنْعَتِهِ: « يَا أَخِي نَحْنُ لاَ نَنْتَظِرُ شَهَادَاتٍ مِنْ أَحَدٍ نَحْنُ عَمَلْنَا فِي المَيْدَانِ وَنَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ – فَقَطْ – أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَّا » [١].

يَقُولُ-رَحِمَهُ اللهُ- : « لَيْسَ مِنْ عَادَاتِي أَنْ أَرْجِعَ دُوْنَ قَرْيَةٍ كُنْتُ أَنْوِي الذِّهَابَ لَهَا » .

(١) « رَجُلٌ بِأُمَّةٍ » فَهْد التَّوْيجِرِيّ (٩) .

وَإِذَا اسْتَعْرَضْنَا العَقَبَاتِ الَّتِي تَعَرَّض لَهَا فِي أَفْرِيْقيَا ، أَدْرَكْنَا أَنَّ الدَّاعِيَةَ لَا بُدَّ أَنْ يَتَرَبَّىٰ عَلَىٰ رَوْحِ التَّحَدِّي وَالإِصْرَارِ ، وَبِهَذَا :

١ – تَتَجَدَّدُ الهِمَّةُ فِي قَلْبِهِ .

٢ – تَزُولُ الانْهِزَامِيَّةَ لَدَيْهِ [(١)].

وَأَهَمُّ مَا كَانَ يَتَمَيَّزُ بِهِ الدُّكْتُورُ السُّمَيْطُ –رَحِمَهُ اللهُ– الثَّبَاتُ وَالاسْتِمْرَارُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ .

وَحِيْنَمَا سُئِلَ : « مَتَىٰ تُلْقِي عَصَا التِّرْحَالِ ؟ » .

قَال–رَحِمَهُ اللهُ– : «سَأُلْقِي عَصَا التِّرْحَالِ يَوْمَ أَنْ تُضْمَنَ الجَنَّةُ لِي ، وَمَا دُمْتُ دُوْنَ ذَلِكَ فَلاَ مَفَرَّ مِنَ العَمَلِ حَتَّىٰ يَأْتِي اليَقِيْنُ » [(٢)] .

الحَالُ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهَا الأُمَّةُ فِي زَمَانِنَا :

يَقُولُ الدُّكْتُورُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السُّمَيْطُ –رَحِمَهُ اللهُ– عَنْ حَالِ الأُمَّةِ الأَفْرِيْقِيَّةِ: « سَأَلْتُ ، قُلْتُ لَهُمْ : أَيْش دِيْنُكُمْ ؟، قَالُوا : الحَمْدُ للهِ نَحْنُ مُسْلِمُونَ بُرُوسْتَانْت!!! [(٣)]، قُلْتُ لَهُمْ:كَيْفُ تَكُونُونُ مُسْلِمُيْـنَ بُرُوسْتَانْت؟!، قَالُوا: أَجْدَادُنَا قَالُوا لَنَا : إِنَّنَا مُسْلِمُونَ ، وَلَكِنَّنَا لاَ نَعْرِفُ كَيْفَ نُصَلِّي ، وَلاَ كَيْفَ

(١) « دُرُوسٌ تَرْبَوِيَّةَ مِنْ حَيَاةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السُّمَيْطِ » ، لِلشِّمْرِيِّ .

(٢) « رَجُلٌ بِأُمَّةٍ » (٢٣) .

(٣) البُرُوسْتَانْتُ : مِنْ أَشْهَرِ الطَّوَائِفِ وَالمَذَاهِبِ المَسِيحِيَّةِ ، وَتُسَمَّىٰ بِهَذَا المَذْهَبِ الكَنِيْسَةُ الإِنْجِلِيَّةُ، بِمَعْنَىٰ أَنَّ أَتْبَاعَ تِلْكَ الكَنِيْسَةِ يَتَّبِعُونَ الإِنْجِيْلَ ويَفْهَمُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ دُوْنَ الخُضُوعِ لِأَحَدٍ أَوْ طَائِفَةٍ أُخْرَىٰ .

نَصُوْمُ ، فَجَاءَنَا البُرُوسْتَانْتُ – جَزَاهُمُ اللهُ خَيْرًا – وَعَلَّمُونَا كَيْفَ نُصَلِّي، وَبَنَوْ لَنَا هَذِهِ الكَنِيْسَةَ – وَأَرُوْنِي الكَنِيْسَةَ – وَأَعْطُونَا الإِنْجِيْلَ » !!! .

وَيُصَوِّرُ لَنَا مَشْهَدًا مِنْ حَالِ الأُمَّةِ فَيَقُولُ : « فِي مَنْطِقَةِ مَكْلَونْدِي فِي جَنُوبِ النَّيْجَرِ يُوْجَدُ ٢٠٠ أَلْفِ نَسْمَةٍ نِصْفُهُمْ مُسْلِمُونَ ، لاَ يَعْرِفُونَ الصَّلَاةَ وَلاَ الصَّوْمَ ، بَلْ لاَ يَعْرِفُونَ شَهَادَةَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ » !!! .

وَهَذَا هُوَ وَاقِعُ الأُمَّةِ المَرْحُومَةِ ، يُحَتِّمُ عَلَىٰ أَفْرَادِهَا فِي زَمَانِنَا الدَّعْوَةَ وَرَفْعَ الجَهْلِ .

فَتْحُ القُلُوبِ رَسُولُ فَتْحِ البُلْدَانِ :

قَالَ –رَحِمَهُ اللهُ– : « مِنْ خِلاَلِ تَجْرِبَتِي الدَّعَوِيَّةِ فَإِنَّ الدَّعوةَ لِلإِسْلَامِ عَنْ طَرِيْقِ المُعَامَلَةِ بِالحُسْنَىٰ » (١).

وَيَتَحَدَّثُ عَنْهُ مَنْ رَافَقَهُ وَكَانَ مَعَهُ ، كَانَ –رَحِمَهُ اللهُ– يَدْخُلُ البَلَدَ أَوْ القَرْيَةَ وَقَدْ أَصَابَهَا الجَفَافُ الشَّدِيْدُ وَتَجِدُ النَّاسَ مِثْلَ الهَيْكَلِ العَظْمِيِّ، فَيَجْمَعُ أَهْلَهُ وَمَنْ مَعَهُ وَيُصَلِّي بِهِم صَلاَةَ الاسْتِسْقَاءِ وَيَدْعُو اللهَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً مِنْ آيَاتِهِ ، فَمَا يَكَادُ يَتِمُّ دُعَاءَهُ حَتَّىٰ يُرْسِلَ اللهُ آيَاتِهِ فَيَدْخُلُ النَّاسُ فِي دِيْنِ اللهِ أَفْوَاجًا ، وَهَذَا مِنْ بَرَكَةِ الصِّدْقِ وَالإِخْلَاصِ .

---

(١) انْظُرْ : «دُرُسٌ تَرْبَوِيَّة مِنْ حَيَاةِ السُّمَيْطُ » .

المَالُ لَيْسَ عَائِقًا في طَرِيْقِ الدَّعْوَةِ :

أَرَىٰ المَالَ أَضْحَىٰ لِلجَوَّادِ مَرَاقِيًا وَتِلْكَ المَرَاقِي لِلبَخِيْلِ مُهَابِطُ (١)

يَقُولُ الدُّكْتُورُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السُّمَيْطُ -رَحِمَهُ اللهُ-: « لَمْ يَكُنْ المَالُ عَائِقًا بِالمَقَامِ الأَوَّلِ ، وَإِنَّمَا الرِّجَالُ هُمُ العَائِقُ ، وَتَوَفُّرُ الطَّاقَاتِ هُوَ العَامِلُ الحَقِيْقِي» .

وَخُلاصَةُ تَجْرِبَةِ الدُّكْتُورُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السُّمَيْطُ -رَحِمَهُ اللهُ- تُزِيْلُ كَثِيْرًا مِنَ الجَدَلِ حَوْلَ مَسْأَلَةِ : أَيُّهُمَا المُحَرِّكُ لِلآخَرِ المَالُ أَوْ الدَّعْوَةَ ؟ .

يُجِيْبُ لَنَا الدُّكْتُورُ السُّمَيْطُ بِخِبْرَتِهِ « بِأَنَّ المَالَ يُيَسِّرُهُ اللهُ ، وَيُسَخِّرُهُ لِخِدْمَةِ دِيْنِهِ وَذَوُو الهِمَّةِ مِنَ الرِّجَالِ يَبْدَؤُونَ أَعْمَالَهُمْ الدَّعْوِيَّةَ بِقَلِيْلٍ مِنَ المَالِ لَكِنْ بِعَزِيْمَةٍ وَافِرَةٍ وَإِيْمَانٍ قَوِيٍّ » (٢) .

فَقَدْ كَانَ -رَحِمَهُ اللهُ- أُمَّةً فِي رَجُلٍ عِنْدَمَا اخْتَارَ أَكْثَرَ الدُّرُوبِ مَشَقَّةً وَصُعُوبَةً ، فَرَزَقَهُ اللهُ الثَّبَاتَ لِخِدْمَةِ دِيْنِهِ وَرَفْعِ رَايَةِ أُمَّتِهِ ، وَامْتَدَّتْ بِهِ سَنَوَاتُ الدَّعْوَةِ قُرَابَةَ ثَلاثَةَ عُقُودٍ ، وَعِنْدَمَا اتُّهِمَ بِالإِرْهَابِ فِي أَحْدَاثِ الحَادِي عَشَرَ مِنْ سِبْتَمْبِرٍ ، كَانَ أَوَّلُ مَنْ دَافَعَ عَنْهُ أَمِيْرُ الكُوَيْتِ جَابِرُ الأَحْمَدُ الصَّبَاحُ -رَحِمَهُ اللهُ- لِصِلَتِهِ الدَّائِمَةِ بِهِ ، وَدَعْمَهُ لَهُ فِي نَشَاطِهِ الدَّعَوِيِّ، فَقَدْ عَاشَ

(١) « دِيْوَانُ ابْنِ الرُّوْمِيِّ » (٢٦١٩) .
(٢) انْظُرْ : «دُرُسٌ تَرْبَوِيَّةٌ مِنْ حَيَاةِ السُّمَيْطُ » .

مَعَ الفُقَرَاءِ وَأَكَلَ مَعَهُمْ ، فَأَيَّدَهُ اللهُ بِصِدْقِ نِيَّتِهِ مُنْعِمًا عَلَيْهِ بِثِمَارِ غَرْسِهِ فَقَدْ رَحَلَ إِلَىٰ اللهِ وَبَقِيَ قِمَّةً شَامِخَةً فِي عَالَمِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ– .

أَسْلَمَ عَلَىٰ يَدَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ أَحَدَ عَشَرَ مِلْيُونًا فِي أَفْرِيْقِيَا ، فَخِلاَلَ سَنَوَاتِ عَمَلِهِ أَكْثَرَ مَا يُدْخِلُ السُّرُورَ فِي قَلْبِهِ أَنْ يَرَىٰ شَخْصًا يَرْفَعُ السَّبَّابَةَ إِلَىٰ أَعْلَىٰ وَيُعْلِنُ شَهَادَةَ التَّوْحِيْدِ ! .

الهِمَّةُ تَتَحَدَّى الأَمْرَاضَ :

رَبِّ مَا لِي إِلَّا إِلَيْكَ التِجَاءُ   عَظُمَ الخَطْبُ وَادْلَهَمَّ البَلَاءُ [1]

إِنَّ أَحْوَجَ زَادٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الدَّاعِيَةُ أَنْ يُشْبِعَ رُوحَهُ مِنَ الهِمَّةِ العَالِيَةِ، إِنَّ الصِّحَّةَ البَدَنِيَّةَ تَأْتِي مُتَأَخِرَةً إِذَا قُوْرِنَتْ بِالهِمَّةِ وَالإِرَادَةِ .

إِنَّ فَاتِحَ أَفْرِيْقِيَا وَمُجَدِّدَهَا الدُّكْتُورُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السُّمَيْطُ –رَحِمَهُ اللهُ– يَقُولُ عَنْ أَمْرَاضِهِ العُضْوِيَّةِ :« فَعِنْدِي عَشَرَاتُ الأَمْرَاضِ مِنْ جَلْطَةٍ بِالقَلْبِ مَرَّتَيْنِ، وَجَلْطَةٍ بِالمُخِّ، مَعَ شَلَلٍ قَدْ زَالَ وَالحَمْدُ للهِ ، وَارْتِفَاعٍ فِي ضَغْطِ الدَّمِ، وَمَرَضِ السُّكَّرِيِّ، وَجَلْطَاتٍ فِي السَّاقِ ، وَخُشُونَةٍ فِي الرُّكْبَةِ تَمْنَعُنِي مِنَ الصَّلَاةِ دُوْنَ كُرْسِيٍّ ،وَارْتِفَاعٍ فِي الكُولِسْتِرُولِ ، وَنَزِيْفٍ فِي العَيْنِ وَغَيْرِهَا كَثِيْرٌ ، وَلَكِنْ مَنْ يُنْقِذُنِي مِنَ الحِسَابِ يَوْمَ يَشْكُونِي النَّاسُ فِي أَفْرِيْقيَا بِأَنَّنِي لَمْ أَسْعَ إِلَىٰ هِدَايَتِهِمْ ؟ » .

---

(١) « دِيْوَانُ أَحْمَد سَحْنُون» (١/ ٥٣٠) .

مَعَ قَائِمَةِ الأَمْرَاضِ الطَّوِيلَةِ أَصْبَحَ يَعْمَلُ عَمَلاً لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ دُوَلٌ بَعْدُ!! وَذَلِكَ بِالهِمَّةِ العَالِيَةِ وَالإِرَادَةِ الجَازِمَةِ ، فَإِذَا صَحَّ العَزْمُ هَانَ الطَّلَبُ وَزَالَ المَرَضُ وَاضْمَحَلَّ العَائِقُ .

وَيَقُولُ فِي البَلْدَةِ الَّتِي سَكَنَهَا: « أَنَا أَعِيْشُ فِي قَرْيَةٍ يَنْقَطِعُ فِيْهَا الكَهْرَبَاءُ وَالمَاءُ يَوْمِيًا وَهَذَا بِالنِّسْبَةِ لِي شَخْصِيًا شَيْءٌ كَثِيْرٌ ؛ لِأَنِّي مُصَابٌ بِالسُّكَّرِيِّ وَأَسْتَخْدِمُ إِبَرَ الأَنْسُولِيْنَ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي اليَوْمِ ، وَعِنْدِي أَدْوِيَةٌ لَابُدَّ أَنْ أَضَعَهَا فِي الثَّلاَجَةِ ، أَنَا أَعِيْشُ فِي قَرْيَةٍ حَتَّىٰ كِيْسُ النَّايْلُون لِشَرَاءِ أَيِّ حَاجَاتٍ مِنَ السُّوقِ ، لاَ أَتَحَصَّلُ عَلَيْهِ بِيُسْرٍ ، أَنَا أَعِيْشُ فِي قَرْيَةٍ لاَ يُوْجَدُ فِيْهَا أَشْيَاءُ كَثِيْرَةٌ مِمَّا تَعَارَفْنَا عَلَيْهِ أَنَا وَأَنْتَ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ أَسَاسِيَّاتِ الحَيَاةِ » .

أَلَيْسَ مِنَ الغُبْنِ الدَّعَوِيِّ أَنْ نَتْرُكَ الدَّعْوَةَ فِي القُرَىٰ وَالهَجَرِ؛ لِقُصُورِ خَدَمَاتِهَا أَوْ لِبُعْدِهَا عَنْ المَوْطِنِ الأَصْلِيِّ ؟! ، مِنَ المُتَقَرَّرِ فِي السُّنَنِ الدَّعَوِيَّةِ أَنَّ النَّجَاحَ عَلَىٰ قَدْرِ المُعَانَاةِ » [١] .

أَعْمَالُهُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- :

وَكُلُّ فِعَالِهِ أَعْمَالُ بِرٍّ وَكُلُّ خِصَالِهِ كَرَمٌ وَجُوْدُ [٢]

* بَنَىٰ أَكْثَرَ مِنْ ٥٧٠٠ مَسْجِدٍ .

(١) انْظُرْ : «دُرُسٌ تَرْبَوِيَّةٌ مِنْ حَيَاةِ السُّمَيْطُ » .
(٢) «دِيْوَانُ ابْنِ شِهَابٍ » (١٠٩) .

و ١٢٤ مُسْتَشْفَىٰ وَمُسْتَوْصَفًا .

و ٢٠٤ مَرَاكِزَ إِسْلَامِيَّةٍ .

و٢١٤ مَرْكَزًا لِلتَّدْرِيْبِ المِهَنِيِّ لِلنِّسَاءِ .

و٨٤٠ مَدْرَسَةً قُرْآنِيَّةً .

و٤ جَامِعَاتٍ مِنْهَا كُلِّيَّةُ الشَّرِيْعَةِ فِي زِنْجِبَارَ .

كَمَا قَامَ بِرِعَايَةِ ١٥٠٠٠ يَتِيْمٍ .

وَحَفَرَ ٩٥٠٠ بِئْرًا ارتوَازِيَّةً .

وَقَامَ بِدَفْعِ رُسُوْمِ ٩٥ أَلْفَ طَالِبٍ مُسْلِمٍ وَطِبَاعَةِ ٦ مَلَايِيْنَ نُسْخَةٍ مِنَ المُصْحَفِ .

كَمَا تَمَّ تَوْزِيْعُ ٥٠ مِلْيُونَ مُصْحَفٍ وَمَا يَرْبُو عَلَىٰ ٦٠٠ مُلْيُون كِتَابٍ مِنَ الكُتُبِ الإِسْلَامِيَّةِ الصَّغِيْرَةِ بِمُخْلَتَفِ اللُّغَاتِ ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِيْنَ .

فَمَضَتْ السُّوْدَانُ بِتَسْمِيَةِ مَدِيْنَةٍ بِاسْمِهِ ، كَمَا مَنَحَتْهُ وِسَامُ النِّيْلَيْنِ مِنَ الطَّبَقَةِ الأُوْلَىٰ ، كَمَا مُنِحَ وِسَامَ دُوَلِ مَجْلِسِ التَّعَاوُنِ الخَلِيْجِيِّ ، كَمَا حَصَلَ عَلَىٰ جَائِزَةِ المَلِكِ فَيْصَلِ العَالَمِيَّةِ لِخِدْمَةِ الإِسْلَامَ عام (١٤١٦هـ) ، وَالَّتِي قَامَ بِإِهْدَائِهَا إِلَىٰ لَجْنَةِ مُسْلِمِي أَفْرِيْقِيَا لِتَكُونَ نَوَاةً لِلوَقْفِ التَّعْلِيْمِيِّ لِأَبْنَاءِ أَفْرِيْقِيَا .

وَحَصَلَ عَلَىٰ وِسَام فَارِسِ العَمَلِ الخَيْرِيِّ مِنْ إِمَارَةِ الشَّارِقَةِ .

وَجَائِزَةِ العَمَلِ الخَيْرِيِّ مِنْ مُؤَسَّسَةِ قَطَرَ .

وَجَائِزَةِ العَمَلِ الخَيْرِيِّ وَالإِنْسَانِي مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ رَاشِدٍ آلِ مَكْتُوم .

وَوِسَام الكُوَيْتِ ذِي الوِشَاحِ مِنَ الدَّرَجَةِ الأُوْلَىٰ لِخِدْمَةِ الإِسْلَام .

وَبِالجُمْلَةِ فَالتَّكْرِيْمُ مِنَ البَشَرِ هُوَ تَكْرِيْمٌ مِنَ اللهِ -تَعَالَىٰ- ،وَالدُّعَاةُ إِلَىٰ اللهِ الَّذِيْنَ يُنْقِذُوْنَ النَّاسَ مِنْ ظُلُمَاتِ الكُفْرِ وَالشِّرْكِ لَهُمْ مِنَّا كُلُّ التَّشْجِيْعِ، «وَمَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ لاَ يَشْكُرُ اللهَ » .

خِتَامًا :

فَأَسَاسُ أَعْمَالِ الوَرَىٰ نِيَّاتُهُمْ   وَعَلَىٰ الأَسَاسِ قَوَاعِدُ البُنْيَانِ [(١)]

أَجِدُ نَفْسِي قَدْ أَطَلْتُ عَلَيْكَ كَثِيْرًا؛ فَحَيَاةُ هَذَا الرَّجُلِ الرَّبَّانِيِّ-رَحِمَهُ اللهُ- تَزْخَرُ بِهِمَّةِ المُلُوكِ فَلاَ جَرَمَ فَقَدْ تَمَّ تَنْصِيبُهُ مَلِكًا ، فَفِي سُؤَالٍ وُجِّهَ إِلَيْهِ كَيْفَ تَعَامَلَتْ مَعَكَ القَبَائِلُ الأَفْرِيْقِيَّةُ ؟،قَالَ-رَحِمَهُ اللهُ-: بَعْضُ القَبَائِلُ المُسْلِمَةِ فِي غَرْبِ أَفْرِيْقِيَا فَرِحَتْ بِي كَعَرَبِيٍّ مُسْلِمٍ يَزُورهُمْ ، وَأَهْدُونِي ثَوْبًا مَلَكِيًّا ، وَنَصَّبُونِي مَلِكًا عَلَيْهِمْ وَعَرَضُوا عَلَيَّ جَارِيَةً لِخِدْمَتِي فَرَفَضْتُ » [(٢)].

(١) «دِيْوَانُ ابْنِ مُشْرِف » (٢٧١) .

(٢) « رَجُلٌ بِأُمَّةٍ » (٢٦) . وَهَذَا الكِتَاب عَلَىٰ وَجَازَتِهِ يَطِيْرُ بِهِمَّةِ مَنْ يَقْرَؤُهُ إِلَىٰ سَمَاءِ العُلاَ ، تَجِدُهُ فِي الشَّبَكَةِ ، فَاحْمِلْهُ إِلَىٰ جَوَّالِكَ ، فَعَدَدُ صَفْحَاتِهِ (٦٧) صَفْحَةً فَقَطْ.

تِلْكَ المَكَارِمُ لا قَعْبَانِ من لَبَنٍ شَيْبًا بِـمَاءٍ فَـعَـادَا بَعْدُ أَبْـوَالاَ

وَبَعْدَ حَيَاةً حَافِلَةٍ بِالعَطَاءِ والجِدِّ والاجْتِهَادِ فِي خِدْمَةِ الإِسْلَامِ تَرَجَّلَ الفَارِسُ عَنْ عُمُرٍ يَنَاهِزُ الـ ٦٦ عَامًا ، رَحِمَهُ اللّٰهُ وَغَفَرَ لَهُ وَعَفَىٰ عَنْهُ .

مَا مَاتَ مَنْ ذِكْـرِهِ بَاقٍ وَسِيْرَتُهُ فِي كُلِّ قَلْبٍ لَهَا فَيْضٌ وَأَنْـوارُ
يَبْقَىٰ العَظِيْمُ عَظِيْمًا لَوْ تَضَمَّنَهُ لَحْدٌ وَهَـالَ عَلَيْهِ الـتُّرَابَ حَفَّارُ

المُهَنْدِسُ مُحَمَّدُ تَوْفِيْقُ -رَحِمَهُ اللّٰهُ- :

وَهَذَا أَخِي الكَرِيْمِ المُهَنْدِسُ مُحَمَّدُ تَوْفِيْقُ -رَحِمَهُ اللّٰهُ- ، ذَاكَ الرَّجُلُ الَّذِي أَسَّسَ دَارَ تَبْلِيْغِ الإِسْلَامِ فِي سُوِيسْرَا ، كَانَ يَعْمَلُ فِي صَمْتٍ طُوَالَ خَمْسَةٍ وَسِتِّيْنَ سَنَةً ، أَسْلَمَ عَلَىٰ يَدَيْهِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ ، أَرْسَلَ رَسَائِلَ لِلتَّعْرِيْفِ بِالإِسْلَامِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَصَلَتْ إِلَىٰ مَائَةِ أَلْفِ رِسَالَةٍ .

يَقُولُ عَنْهُ الصُّحُفِيُّ المَغْرِبِيُّ عَبْدُ القَادِرِ الإِدْرِيْسِيُّ : الْتَقَيْتُ بِهِ مَرَّتَيْنِ تَفْصِلُ بَيْنَهُمَا ثَلَاثَةَ عَشْرَةَ سَنَةً ، لَمْ يَتَغَيَّرْ الرَّجُلُ طُوَالَ هَذِهِ المُدَّةِ ، بَلْ أَسْتَطِيْعُ أَنْ أَقُولَ : إِنَّ قُوَّتَهُ وَعَزِيْمَتَهُ تَزْدَادَانِ مَضَاءً مَعَ تَوَالِي الأَعْوَامِ ، وَالإِشْرَاقُ فِي عَيْنَيْهِ يَجْذِبُكَ إِلَيْهِ بِقُوَّةٍ ، رَجُلٌ لَيْسَ كَالرِّجَالِ قِمَّةٌ مِنَ القِمَمِ الشَّامِخَةِ الَّتِي وَهَبَتْ حَيَاتَهَا للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ [١] .

---

(١) انْظُرْ : « صَلَاحُ الأُمَّةِ فِي عُلُوِّ الهِمَّةِ » لِلعَفَّانِي (٢/ ١١٥) .

عَلَىٰ قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائِمُ ... وَتَـأْتِي عَلَىٰ قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيْرِ صِغَارُهَا ... وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ العَظِيْمِ العَظَائِمُ [١]

٢ـ حُصُولُ السَّعَادَةِ :

تَأْبَىٰ السَّعَادَةُ إِلَّا أَنْ تُسَايِرَهُمْ ... لِأَنَّهُمْ لِمُلُوكِ الأَرْضِ ضِيْفَانُ [٢]

اعْلَمْ – أَخِي الكَرِيْم– أَنَّ الهِمَّةَ العَالِيَةَ سَبَبٌ عَظِيْمٌ فِي سَعَادَةِ المَرْءِ لِأَنَّهَا تَحْدُو بِهِ إِلَىٰ مَعَالِي الأُمُورِ وَأَشْرَافِهَا ، وَتَنْأَىٰ بِهِ عَنْ سَفَاسِفِ الأُمُورِ .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللّٰهُ- :

« فَعُلُوُّ هِمَّةِ المَرْءِ: عُنْوَانُ فَلَاحِهِ، وَسُفُولُ هِمَّتِهِ: عُنْوَانُ حِرْمَانِهِ» [٣].

وَ قَالَ -رَحِمَهُ اللّٰهُ- :

« فَكَيْفَ يَحْسُنُ بِذِي هِمَّةٍ قَدْ أَزَاحَ اللهُ عَنْهُ عِلَلَهُ ، وَعَرَّفَهُ السَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ أَنْ يَرْضَىٰ بِأَنْ يَكُونَ حَيَوَانًا ، وَقَد أَمْكَنَهُ أَنْ يَصِيْرَ إِنْسَانًا ، وَبِأَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا وَقَدْ أَمْكَنَهُ أَنْ يَكُونَ مَلِكًا ، وَ بِأَنْ يَكُونَ مَلِكًا وَقَدْ أَمْكَنَهُ أَنْ يَكُونَ مَلِكًا فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيْكٍ مُقْتَدِرٍ ، فَتَقُومُ المَلَائِكَةُ فِي خِدْمَتِهِ،

---

(١) «دِيْوَانُ المُتَنَبِّي» (١٣١) .
(٢) «دِيْوَانُ أَحْمَدُ شَوْقِي» (١/ ٨٧٨) .
(٣) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْـنَ » (٣/ ١٦٣) .

وَتَدْخُلُ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ .

قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرَّعْدُ :٢٤] .

وَهَذَا الكَمَالُ إِنَّمَا يُنَالُ بِالعِلْمِ وَرِعَايَتِهِ وَالقِيَامُ بِمُوْجِبِهِ ، فَعَادَ الأَمْرُ إِلَىٰ العِلْمِ وَثَمَرَتِهِ ، واللهُ المُوفَّق ، وَأَعْظَمُ النَّقْصِ وَأَشَدُّ الحَسْرَةِ نَقْصُ القَادِرِ عَلَىٰ التَّمَامِ ، وَحَسْرَتِهِ عَلَىٰ تَقْوِيَتِهِ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : إِذَا كَثُرَتْ طُرُقِ الخَيْرِ كَانَ الخَارِجَ مِنْهَا أَشَدَّ حَسْرَةً ، وَصَدَقَ القَائِلُ :

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا كَنَقْصِ القَادِرِيْنَ عَلَىٰ التَّمَامِ

فَثَبَتَ أَنَّهُ لَاَ شَيْءَ أَقْبَحُ بِالإِنْسَانِ مِنْ أَنْ يَكُونَ غَافِلاً عَنْ الفَضَائِلِ الدِّيْنِيَّةِ والعُلُوم النَّافِعَةِ ، وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الهَمَجِ الرِّعَاعِ الَّذِيْنَ يُكَدِّرُونَ المَاءَ وَيُغَلُّونَ الأَسْعَارِ ، إِنْ عَاشَ عَاشَ غَيْرَ حَمِيْدٍ ، وَإِنْ مَاتَ مَاتَ غَيْرَ فَقِيْدٍ ، فَقْدَهُمْ رَاحَةٌ لِلبِلَادِ والعِبَادِ ، وَلاَ تَبْكِي عَلَيْهِمُ ، وَلاَ تَسْتَوْحِشُ لَهُمُ الغَبْرَاءُ » [1].

وَلِلّهِ دَرُّ القَائِلِ :

وَلَسْتُ أَرَىٰ السَّعَادَةَ جَمْعَ مَالٍ وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيْدُ
وَتَقْوَىٰ اللهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا وَعِنْدَ اللهِ لِلأَتْقَىٰ مَزِيْدُ

---

(١) « مُفْتَاحُ دَار السَّعَادَة» (١/ ١١٠) .

وَمَـا لَابُــدَّ أَنْ يَــأْتِي قَـرِيْـبٌ   وَلَـكِـنْ الَّـذِي يَمْضِي بَعِيْدُ[١]

وَقَالَ آخَرُ:

أَلَا فَانْهَضْ إِلَىٰ الوَهَّابِ وَاشْكُرْ   لَـهُ نِـعْـماً غِـــزَارًا لَا تَـبِـيْـدُ
إِذَا وَالَيْتَ بِالطَّاعَاتِ شُكْرًا   بِإِخْلَاصٍ فَأَنْتَ إِذَنْ سَعِيْدُ [٢]

٣ـ الصَّبْرُ عَلَى العِلْمِ والنَّهَمَةُ فِي طَلَبِهِ :

حَـفَـرْتُـمُ صَـخْـرًا وَأَنْـبَـطْـتُـمُ   مَاءً ، فَهَلَّا العِلْمَ تَسْتَنْبِطُونْ [٣]

وَمِنْ ثِمَارِ عُلُوِّ الهِمَّةِ - أَخِي الكَرِيْمِ -الصَّبْرُ عَلَىٰ العِلْمِ والنَّهَمَةُ فِي طَلَبِهِ وَالمُحَافَظَةُ عَلَىٰ الوَقْتِ لِأَقْصَىٰ دَرَجَةٍ ، وَإِمْضَاؤُهُ فِي القِرَاءَةِ وَالبَحْثِ والتَّنقِيبِ ، أَوْ فِي التَّأْلِيْفِ وَالتَّقْيِيدِ .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-: «العِلْمُ وَالعَمَلُ تَوْأَمَانِ أُمُّهُمَا عُلُوُّ الهِمَّةِ »[٤].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ -رَحِمَهُ اللهُ-:

وَمَنْ يَصْطَبِرْ لِلعِلْمِ يَظْفَرْ بِنَيْلِهِ   وَمَنْ يَخْطُبِ الحَسْنَاءَ يَصْبِرْ عَلَىٰ البَذْلِ

---

(١) «دِيْوَانُ الحَطِيْئَة» (٦).
(٢) «مَجْمُوعَات القَصَائِد الزُّهْدِيَّات» (٢/ ٤١٩).
(٣) « دِيْوَانُ أَبِي العَلَاء » (١٤٤٤).
(٤) « الفَوَائِدُ » (٣٧٣).

وَمَنْ لَمْ يُذِلَّ النَّفْسَ فِي طَلَبِ العُلَى   يَسِيْرًا يَعِشْ دَهْرًا طَوِيْلاً أَخَا ذُلِّ [١]

٤ـ الوُصُولُ إِلَى مَرَاتِبَ عُلْيَا فِي العِبَادَةِ وَالزُّهْدِ :

العِلْمُ لاَ يُعْلِيْ المَرَاتِبَ وَحْـدهُ   كَمْ قَدَّمَ العَمَلُ الرِّجَالَ وَأَخَّرَ [٢]

وَمِنْ ثَمَرَاتِ عُلُوِّ الهِمَّةِ - أَخِي الكَرِيْمِ -الوُصُولُ إِلَىٰ مَرَاتِبَ عُلْيَا فِي العِبَادَةِ وَالزُّهْدِ وَالعِلْمِ والعَمَلِ .

قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلْ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وَهُوَ عَلَىٰ فِرَاشِ المَوْتِ : « اللهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ البَقَاءَ فِي الدُّنْيَا وَلاَ طُوْلَ المَكْث فِيْهَا لِجَرْيِ الأَنْهَارِ، وَلاَ لِغَرْسِ الأَشْجَارِ ، وَلَكِنْ كُنْتُ أُحِبُّ البَقَاءَ لِمُكَابَدَةِ اللَّيْلِ الطَّوِيْلِ وَظَمَأ الهَوَاجِرِ فِي الحَرِّ الشَّدِيْدِ وَلِمُزَاحَمَةِ العُلَمَاءِ بِالرُّكَبِ فِي حِلَقِ الذِّكْرِ » [٣] .

وَالخُلْدُ فِي دُنْيَاكَ لَيْسَ بِهَيِّـنٍ   عُلْيَا المَرَاتِبِ لَمْ تُتَحْ لِجَبَانِ [٤]

---

(١) « نَوَادِرُ الفَوَائِدِ مِنْ كِتَابِ بُغْيَةِ الدُّعَاةِ » (١١) .
(٢) « دِيْوَانُ أَحْمَدُ شَوْقِي » (١/ ٤٢٧) .
(٣) « تَارِيْخُ دِمِشْق» (٥٨/ ٤٥٠) ، وَانْظُرْ : « حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ (١/ ٢٣٩) .
(٤) « دِيْوَانُ أَحْمَدُ شَوْقِي » (٥٢٨) .

٥ـ أَخْذُ النَّفْسِ بِالجِدِّ:

لاَ تَتْرُكُوا الجِدَّ أَوْ يَبْدُو اليَقِيْنُ لَكُمْ ... فَالجِدُّ مُفْتَاحُ بَابِ المَطْلَبِ العَضِلِ [(١)]

وَمِنْ ثِمَارِ عُلُوِّ الهِمَّةِ - أَخِي الكَرِيْمِ- أَخْذُ النَّفْسِ بِالجِدِّ وَحَمْلُهَا عَلَىٰ التَّضْحِيَةِ .

فَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ قَيْسٍ « أَبِي أُمَيَّةَ الغِفَارِيِّ » قَالَ : « كُنَّا فِي غَزَاةٍ لَنَا فَحَضَرَ عَدُوُّهُمْ ، فَصِيْحَ فِي النَّاسِ ، فَهُمْ يَثُوبُونَ إِلَىٰ مَصَافِّهِمْ ، إِذَا رَجُلٌ أَمَامِي، رَأْسُ فَرَسِي عِنْدَ عَجُزِ فَرَسِهِ ، وَهُوَ يُخَاطِبُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ : « أَيْ نَفْسُ أَلَمْ أَشْهَدْ مَشْهَدَ كَذَا وَكَذَا ؟ ، فَقُلْتِ لِي : أَهْلُكَ وَعِيَالُكَ فَأَطَعْتُكِ وَرَجَعْتُ؟، أَلَمْ أَشْهَدْ مَشْهَدَ كَذَا وَكَذَا ؟ ، فَقُلْتِ لِي : أَهْلُكَ وَعِيَالُكَ فَأَطَعْتُكِ وَرَجَعْتُ؟، واللهِ لأَعْرِضَنَّكِ اليَوْمَ عَلَىٰ اللهِ، أَخَذَكِ أَوْ تَرَكَكِ »، فَقُلْتُ : لأَرْمُقَنَّهُ اليَوْمَ، فَرَمَقْتُهُ ، فَحَمَلَ النَّاسُ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ، فَكَانَ فِي أَوَائِلِهِمْ، ثُمَّ إِنَّ العَدُوَّ حَمَلَ عَلَىٰ النَّاسِ فَانْكَشَفُوا ، فَكَانَ فِي حُمَاتِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ حَمَلُوا، فَكَانَ فِي أَوَائِلِهِمْ ، ثُمَّ حَمَلَ العَدُوُّ ، وَانْكَشَفَ النَّاسُ ، فَكَانَ فِي حُمَاتِهِمْ ، قَالَ : « فَوَاللهِ مَا زَالَ ذَلِكَ دَأْبَهُ حَتَّىٰ رَأَيْتُهُ صَرِيْعًا ، فَعَدَدْتُ بِهِ وَبِدَابَّتِهِ سِتِّيْنَ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ سِتِّيْنَ طَعْنَةً » [(٢)].

---

(١) « دِيْوَانُ البَارُوْدِيِّ » (٦) .

(٢) « صِفَةُ الصَّفْوَةِ» (٤/ ٤٢١) .

وَقَدْ يُدْرِكُ المَجْدَ الفَتَىٰ وَهُوَ مُقتِرٌ   كَثِيْرُ الرَّزَايَا مُخلِقٌ سَمِلَاهُ [١]

٦ـ الارْتِقَاءُ بِالأَخْلَاقِ:

وَكُلُّ مَكَارِمِ الأَخَـلاقِ صَارَتْ   إِلَيْهِ هِمَّتِي ، وَبِـهِ اكْتِسَابِي [٢]

وَمِنْ ثَمَرَاتِ الهِمَّةِ العَالِيَةِ – أَخِي الكَرِيْمِ – أَنَّهَا تَنْهَضُ بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

«فَمَنْ عَلَتْ هِمَّتُهُ ، وَخَشَعَتْ نَفْسُهُ اتَّصَفَ بِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيْلٍ ، وَمَنْ دَنَتْ هِمَّتُهُ وَطَغَتْ نَفْسُهُ اتَّصَفَ بِكُلِّ خُلُقٍ رَذِيْلٍ » [٣].

وَقَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ خَضِر حُسَيْن عَنْ آثَارِ خُلُقِ الهِمَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا :

« يَسْمُو هَذَا الخُلُقُ بِصَاحِبِهِ فَيَتَوَجَّهُ بِهِ إِلَىٰ النِّهَايَاتِ مِنْ مَعَالِي الأُمُورِ، فَهُوَ الَّذِي يَنْهَضُ بِالضَّعِيْفِ مِنْ أَنْ يُضطَهَدَ أَوْ يُزْرَىٰ ، فَإِذَا هُوَ عَزِيْزٌ كَرِيْمٌ، وَهُوَ الَّذِي يَرْفَعُ القَوْمَ مِنْ سُقُوْطٍ ، وَيُبْدِ لَهُمْ بِالخُمُولِ نَبَاهَةً ، وَبِالاضْطِهَادِ حُرِّيَّةً ، وَبِالطَّاعَةِ العَمْيَاءِ شَجَاعَةً أَدَبِيَّةً .

هَذَا الخُلُقُ هُوَ الَّذِي يَحْمِي الجَمَاعَةَ مِنْ أَنْ تَتَمَلَّقَ خَصْمَهَا ... أَمَّا صَغِيْرُ الهِمَّةِ ؛ فَإِنَّهُ يُبْصِرُ بِخُصُومِهِ فِي قُوَّةٍ وَسَطْوَةٍ فَيَذُوبُ أَمَامَهُمْ رَهْبَةً ، وَيُطْرِقُ

(١) « دِيْوَانُ أَبِـي العَلَاءِ » (١٤٥٤) .
(٢) « دِيْوَانُ امْرِئُ القَيْسِ » (٧٨) .
(٣) « الفَوَائِدُ » (٢١١) .

إِلَيْهِمْ رَأْسَهِ حِطَّةً ، ثُمَّ لاَ يَلْبَثُ أَنْ يَسِيْرَ فِي رِيْحِهِمْ وَيُسَابِقَ إِلَىٰ حَيْثُ تَنْحَطُّ أَهْوَاؤَهُمْ »[1].

أَخٍ طَاهِرُ الأَخْلَاق عَذْبٌ كَأَنَّهُ   جَنَىٰ النَّحْلُ مَمْزُوْجًا بِمَاءِ غَمَامِ
يَزِيْدُ عَلَىٰ الأَيَّامِ صَفْوُ مَوَدَّة   وَشِدَّة إِخْلَاص وَرَعْيَ ذِمَامِ[2]



(١) « رَسَائِلُ الإِصْلاَحِ » (٢/ ٨٨).
(٢) « الدِّيْوَانُ المَنْسُوبِ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِب» (١٥٢).

A

A

مُقَدِّمَةٌ.. ٥
اسْتِهْلالٌ ٩
البَابُ الأَوَّلُ : مَا هِيَ الهِمَّةُ ؟ ١٣
أَقْسَامُ الهِمَّةِ.. ١٥
الهِمَّةُ مَحَلُّهَا القَلْبُ.. ١٦
الهِمَّةُ لاَ تَهْرَمُ.. ١٩
نُدْرَةُ كَبِيْرِ الهِمَّةِ ٢١
تَفَاوُتُ الهِمَمِ ٢٣
المَرْءُ حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ ٢٦
الهِمَّةُ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ.. ٢٩
أَوَّلًا : الهِمَّةُ فِي القُرْآنِ الكَرِيْمِ : ٢٩
ثَانِيًا : الهِمَّةُ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِّيَةِ:.. ٣١
عُلُوُّ هِمَّةِ الرَّسُولِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ٣٤
هِمَّتُهُ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي العِبَادَةِ : ٣٥

هِمَّةُ الْمُلُوكِ حَتَّى فِي أَحْلَكِ الظُّرُوفِ........................ ٣٦
عَالِي الهِمَّةَ لاَ يَضُرُّهُ التَّفَرُّدُ ٣٨
حَاجَةُ طَالِبِ العِلْمِ لِعُلُوِّ الهِمَّةِ............................ ٤٠
أَعْلَى الهِمَمِ فِي طَلَبِ عِلْمِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ................... ٤٢
لِتَكُنْ هِمَّتُكَ الآخِرَةَ.................................... ٤٣
لاَ تَقِفْ بِكَ هِمَّتُكَ دُونَ اللهِ............................... ٤٤
البَابُ الثَّانِي : أَسْبَابُ دُنُوِّ الهِمَّةِ....................... ٤٧
أَسْبَابُ دُنُوِّ الهِمَّةِ....................................... ٤٩
١- ضَعْفُ الإِيمَانِ : ٤٩
٢- الانْحِرَافُ العَقَدِيُّ : ٥١
٣- المَعَاصِي : ٥٢
٤- الخَوْفُ والهَمُّ والحَزَنُ :................................. ٥٤
٥- مُجَالَسَةُ البَطَّالِيْنَ والمُثَبِّطِيْنَ :......................... ٥٥
٦- الانْهِمَاكُ فِي الدُّنْيَا : ٥٦
٧- الكَسَلُ : ٥٨
٨- الإِحْسَاسُ بِالفَشَلِ :..................................... ٥٩
٩- التَّسْوِيْفُ وَالتَّمَنِّي : ٦٠

١٠ - التَّرَدُّدُ :.. ٦١
١١ - الغَفْلَةُ :.. ٦٣
١٢ - الفُتُورُ : ٦٤
١٣ - الوَهْنُ : ٦٥
١٤ - الانْشِغَالُ بِمَا لاَ يُعْنِي المَرْءِ: ٦٦
١٥ - التَّرَفُ : ٦٧
١٦ - ضَيَاعُ الوَقْتِ : ٦٨
١٧ - الرِّضَى بِالدُّوْنِ : ٧٢
١٨ - اليَأْسُ : ٧٥
١٩ - التَّقْصِيْرُ فِي العِبَادَةِ :.. ٧٦
٢٠ - الانْشِغَالُ بِمَا لاَ يُعْنِي المَرْءِ : ٧٧
البَابُ الثَّالِثُ : أَسْبَابُ عُلُوِّ الهِمَّةِ ٨١
أَسْبَابُ عُلُوِّ الهِمَّةِ.. ٨٣
١ - الإِخْلاَصُ :.. ٨٣
٢ - سَلاَمَةُ العَقِيْدَةِ :.. ٨٣
٣ - قُوَّةُ الإِيْمَانُ بِاللهِ : ٨٤
٤ - التَّوَكُّلُ : ٨٦

٥ – العِلْمُ :........................... ٨٨
٦ – الصَّبْرُ :........................... ٨٩
٧ – الصِّدْقُ :........................... ٩٠
٨ – القِرَاءَةُ فِي السِّيَرْ وَالتَّرَاجِمِ :............ ٩١
٩ – صُحْبَةُ الأَخْيَارِ :........................... ٩٢
١٠ – التَّحَوُّلُ عَنْ البِيْئَةِ المُثَبِّطَةِ :............ ٩٤
١١ – عَدَمُ الاسْتِمَاعِ لِلمُثَبِّطِيْنَ:............ ٩٥
١٢ – التَّفَاؤُلُ :........................... ٩٦
١٣ – البُعْدُ عَنْ سَفَاسِفِ الأُمُورِ :............ ٩٧
١٤ – مَعْرِفَةُ قِيْمَةِ النَّفْسِ وَشَرَفِهَا :............ ٩٨
١٥ – اليَقَظَةُ وَالمُسَارَعَةُ :............ ٩٩
١٦ – التَّشْجِيْعُ :........................... ١٠١
١٧ – انْتِهَازُ الفُرَصِ:........................... ١٠٣
كَيْفَ يَكُونُ اغْتِنَامُ الفُرَصِ ؟........................... ١٠٤
١ – الاسْتِعْدَادُ المُسْبَقُ :........................... ١٠٤
٢– الوُثُوبُ عَلَى الفُرْصَةِ وَثُوْبَ الفَهْدِ دُونَ تَأَخُرٍ :...... ١٠٥
٣– اسْتِغْلَالُ الفُرَصِ مِنْ دُوْنِ وَضْعِ شُرُوطٍ لَهَا :........ ١٠٦

٤- التَّمَسُّكُ بِالفُرصَةِ وَتَرْكُ التَّرَدُّدِ : ١٠٦
١٨- الشَّجَاعَةُ : ١٠٧
١٩- الدِّقَةُ فِي المَوَاعِيْدِ : ١٠٨
٢٠- المُجَاهَدَةُ : ١١٤
٢١- المُبَادَرَةُ : ١١٤
٢٢- التَّرْبِيَةُ مُنْذُ الصِّغَرِ : ١١٦
البَابُ الرَّابِعُ : ثَمَرَاتُ عُلُوِّ الهِمَّةِ ١١٧
ثَمَرَاتُ عُلُوِّ الهِمَّةِ ١١٩
١- الهِمَّةُ مُقَدَّمَةُ الأَشْيَاءِ : ١١٩
أ - الطُّمُوْحُ : ١٢٠
ب - التَّغَلُّبُ عَلَى الظُّرُوفِ : ١٢٤
جـ - النَّجَاحُ : ١٢٧
د - قُوَّةُ العَزِيْمَةِ : ١٢٩
هـ - الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ : ١٣١
الدُّكْتُورُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السُّمَيْطُ -رَحِمَهُ اللهُ-: ١٣٢
الحَالُ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهَا الأُمَّةُ فِي زَمَانِنَا : ١٣٥
فَتْحُ القُلُوبِ رَسُولُ فَتحِ البُلْدَانِ : ١٣٦

المَالُ لَيْسَ عَائِقَاً فِي طَرِيْقِ الدَّعْوَةِ : ١٣٧
الهِمَّةُ تَتَحَدَّى الأَمْرَاضَ : ١٣٨
المُهَنْدِسُ مُحَمَّدُ تَوْفِيْقُ -رَحِمَهُ اللهُ- : ١٤٢
٢- حُصُولُ السَّعَادَةِ : ١٤٣
٣- الصَّبْرُ عَلَى العِلْمِ والنَّهَمَةُ فِي طَلَبِهِ : ١٤٥
٤- الوُصُولُ إِلَى مَرَاتِبَ عُلْيَا فِي العِبَادَةِ وَالزُّهْدِ : ١٤٦
٥- أَخْذُ النَّفْسِ بِالجِدِّ: ١٤٧
٦- الارْتِقَاءُ بِالأَخْلاَقِ: ١٤٨
الفهرس........................ ١٥١

